الفوائد

تأليف

الامام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية

دار الريان للتراث

القاهرة

الفوائد

تاليف

الامام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية

دار الريان للتراث

القاهرة

الطبعة الاولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
القاهرة



١٧٧ شارع الأهرام ـ إسباتس ـ الجيزة

٢٢ شارع الأندلس خلف الميرلاند ـ مصر الجديدة ـ القاهرة

معرض رقم ٨ ميدان الأوبرا ـ القاهرة

١ شارع البورصة من شارع قصر النيل ـ القاهرة

٤٣ أ شارع رمسيس ـ القاهرة

برج رمادا ـ سيدى بشر ـ الاسكندرية

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.. وبعد

فانا عندما حاولنا التقديم لكتاب الفوائد لم نجد أمامنا غير بيتين من الشعر ذكرهما المؤلف أيضاً فى الكتاب:

أتاك حديث لا يمل سماعه شهى الينا نثره ونظامه
إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المعنى ظلامه

وهذا ما يلمسه ويشعر به من يقرأ الكتاب، وخصوصاً ان مؤلفه هو ابن القيم، حيث يتناول رحمه الله آية أو جزءاً من آية فيفسرها تفسيراً لم يسبقه أحد اليه، أو يتناول حديثاً أو جزءاً من حديث أو حتى كلمة فيه، فيبرع فى إخراج المعانى القيمة والحكم المفيدة من ذلك.

فمثلاً عندما تناول إقرار العبد لله بالعبودية كما جاء فى الحديث «ناصيتى بيدك» قال:

«وقد شهد العبد ان ناصيته ونواصى العباد كلها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء، لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المالكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهم غيرهم، فمن شهد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفاً لازماً له، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر اليهم، ولم يعلق أمله ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته، ولهذا قال هود لقومه:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ

﴿ ... رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

ومن فوائده أيضاً قوله :

« الجاهل يشكو الله إلى الناس » وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فانه لو عرف ربه لما شكاه ولو عرف الناس لما شكا اليهم. ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال : يا هذا ، والله ما زدت على ان شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك ، وفي ذلك قيل :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده ، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه ، فهو ناظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٣)

وقوله : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٤) فالمراتب ثلاث : اخسها أن تشكو الله إلى خلقه ، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه وأوسطها أن تشكو خلقه إليه » .

ويقول أيضاً :

« معرفة الله سبحانه نوعان : معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس : البر والفاجر والمطيع والعاصي ، والثاني معرفة توجب الحياء منه ، والمحبة له ، وتعلق القلب به ، والشوق إلى لقائه ، وخشيته ، والانابة إليه ، والأنس به ، والفرار من الخلق إليه » .

---

(١) سورة هود : الآية ٥٦ .
(١) الشورى : الآية ٣٠
(٣) النساء : الآية ٧٩
(٤) آل عمران : الآية ١٦٥ .

وتأمل أيضاً قوله :

«ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء ، وحياته بيده وموته بيده وسعادته بيده وشقاوته بيده وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله باذن مشيئته ، فلا يتحرك إلا باذنه ، ولا يفعل إلا بمشيئته ، ان وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة ، وان وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وان تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيراً له . فهو لا غنى عنه طرفة عين بل هو مضطر اليه على مدى الأنفاس ، في كل ذرة من ذراته باطناً وظاهراً ، فاقته تامة اليه ، ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه يتبغض إليه بمعصيته مع شدة الضرورة اليه من كل وجه ، قد صار لذكره نسياً واتخذه وراءه ظهرياً ، هذا وإليه مرجعه ، وبين يديه موقفه» .

ما شاء الله ما شاء الله ، هل رأيت أحلى وأجمل من هذا الكلام ، بل هل رأيت أسهل وأيسر من هذه الطريقة في توصيل تلك المعاني الدقيقة التى لا يقدر على توصيلها إلا من فتح الله عليه ووفقه وآتاه من لدنه علماً .

وانك أيها القارىء الكريم ستجد تلك طريقة ابن القيم رحمه الله فى جميع كتبه وخاصة هذا الكتاب الذى بين يديك ، حكم وعظات، وآداب و . . . فوائد .

وانه لما يسرنا اليوم أن نتشرف بنشر كتاب الفوائد للأمام ابن القيم . ومن توفيق الله لك أيها القارىء الكريم ان تقرأ مثل هذا الكتاب فانه على صغر حجمه جمع فأوعى وكان حقاً فوائد .

الناشر

القاهرة فى ١٠/٢/١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الأمام، محيي السنة قامع البدعة، أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية، رحمه الله ورضي عنه:

قاعدة جليلة

شروط الانتفاع بالقرآن

إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، والق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه اليه[1]، فانه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٢).

وذلك ان تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذى يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.. فقوله: **(ان فى ذلك لذكرى)** اشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: **(لمن كان له قلب)** فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحى الذى يعقل عن الله كما قال تعالى:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۞ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ (٣).

---

(١) الضمير فى لفظة «منه» يعود إلى الله عز وجل. وفى «إليه» يعود إلى المخاطب، بفتح الطاء.

(٢) سورة ق: الآية ٣٧.

(٣) سورة يس: الآية ٦٩ ــ ٧٠.

أى حى القلب. وقوله: (أو ألقى السمع) أى وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام.

وقوله: (وهو شهيد) أى شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة(١): استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو اشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحى، ووجد الشرط وهو الاصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شىء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر.

القلب الحى:

فان قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول اداة «أو» فى قوله: (أو ألقى السمع)، والموضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التى هى لأحد الشيئين؟ قيل: هذا سؤال جيد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو، فان من الناس من يكون حى القلب واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ (٢).

وقال فى حقهم:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ

(١) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، توفى سنة ٢٧٦ هـ. وستأتى ترجمته.
(٢) سورة سبأ: الآية ٦.

﴿ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (١).

فهذا نور الفطرة على نور الوحي. وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي.

قال ابن القيم: وقد ذكرنا ما تضمنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية». فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب. ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلى شاهد يميز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكر فيه وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول: حال من رأى بعينه ما دعي اليه وأخبر به.

والثاني: حال من علم صدق المخبر وتيقنه وقال يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأول في مقام الاحسان. هذا قد وصل إلى علم اليقين وترقى قلبه منه إلى منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام.

فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة. فالحاصل في الدنيا نسبته إلى القلب كنسبة الشاهد إلى العين. وما أخبرت به الرسل

---

(١) سورة النور: الآية ٣٥.

من الغيب يعاين فى الآخرة بالأبصار، وفى الدنيا بالبصائر(1)، فهو عين يقين فى المرتبتين.

فصل

المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت فى سورة (ق)

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى ويغنى عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول، فانها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقى وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء. وتضمنت اثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائض والعيوب. وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى. والعالمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة. والأصغر، وهو عالم الدنيا. وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته واعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده، واحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال:

﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ (2).

أى هذا الذى أمرت باحضاره قد أحضرته، فيقال عند احضاره:

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (3).

كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه.

---

(1) البصائر: جمع بصيرة، والبصيرة: العقل والفطنة.

(2) سورة ق: الآية 23. عتيد: أى حاضر.

(3) سورة ق: الآية 24.

المعاد للجسد ذاته:

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها، ويعذب التى كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدناً غير هذا البدن، من كل وجه، عليه يقع النعيم والعذاب. والروح عنده عرض من أعراض البدن، فيخلق روحاً غير هذه الروح، وبدناً غير هذا البدن، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ودل عليه القرآن والسنة وسائر كتب الله تعالى. وهذا فى الحقيقة انكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فانهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام اخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يخلق شيئاً بعد شيء! فكل وقت يخلق الله سبحانه أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فنيت، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً؟ وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم، بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا:

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾(١).

وقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ (٢).

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٦. (٢) سورة ق: الآية ٣.
(٣) سورة ق: الآية ٤.

كبير معنى. فانه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو: انه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها وتأليفها خلقاً جديداً، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته، فان شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

شبه المنكرين للمعاد :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

الثاني : ان القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث : ان ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئاً بعد شيء، هكذا أبدا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر. فأما أن يميت النوع الإنسانى كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك، فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

براهين المعاد :

أحدهما : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال فى جواب من قال : ﴿ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (١).

وقال : ﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢).

---

(١) سورة يس : الآية ٧٨ ــ ٧٩.	(٢) سورة الحجر: ٨٥ ــ ٨٦.

وقال: (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم).

والثانى: تقرير كمال قدرته، كقوله:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (١).

وقوله: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ (٢).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما فى قوله: (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم).

الثالث: كمال حكمته، كقوله:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ (٤).

وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾ (٥).

وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٦).

وقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ (٧)

وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٨)

---

(١) سورة يس: الآية ٨١.
(٢) سورة القيامة: الآية ٤.
(٣) سورة الحج: ٦.
(٤) سورة الدخان: الآية ٥.
(٥) سورة ص: الآية ٢٧.
(٦) سورة القيامة: ٣٦. سدى: أى مهملا.
(٧) سورة المؤمنون: ١١٥ ــ ١١٦.
(٨) سورة الجاثية: الآية ٢١.

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائض.

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم:

﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ (١).

مختلط لا يحصلون منه على شيء، ثم دعاهم إلى النظر فى العالم العلوى وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلى وهو الأرض، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب وتبصربها، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر فى مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذى أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منابعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها. ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التى لا تخفى على المتأمل:

﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٢).

---

(١) سورة ق: الآية ٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦.

ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (١).

أى مثل هذا الاخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب، خروجكم من الأرض بعد ماغيبتم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة فى القرآن فى كتابنا «المعالم»، وبينا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك وصدق فيهم وعيده الذى أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب. ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت (٢) والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شىء من ذلك أو ان حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت (٣) مباهت جاحد لما شهد به العيان وتناقلته القرون قرناً بعد قرن، فانكاره بمنزلة انكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

معنى العيى:

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله:

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ (٤).

يقال لكل من عجز عن شىء: عيى به، وعيى فلان بهذا الأمر، قال الشاعر:

---

(١) سورة ق: الآية ١١.

(٢) البهت، والبهتان: الكذب المفترى.

(٣) أى كاذب.

(٤) سورة ق: الآية ١٥.

عــيــوا بــأمــرهــم كما عييت ببيضتها الحمامة

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾ (١).

قال ابن عباس (٢): يريد أفعجزنا، وكذلك قال مقاتل (٣). قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة، وحقيقتها أعم من ذلك، فان العرب تقول: أعيانى أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول: أعيانى دواؤك إذا لم تهتد له ولم تقف عليه. ولازم هذا المعنى العجز عنه. والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فان الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة، فهى تدور وتجول حتى ترمى بها، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال، فهى تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيى بأمره فلم يدر من أين يقصد له ومن أين يأتيه، وليس المراد بالاعياء فى هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذى نفاه سبحانه عن نفسه فى آخر السورة بقوله:

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ (٤)

ثم أخبر سبحانه أنهم:

﴿ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٥)،

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٣.

(٢) ابن عباس: هو عبد الله بن عبد المطلب «أبو العباس» ابن عم رسول الله (ص) كان يقال عنه الحبر والبحر. دعا له النبى بالحكمة مرتين. ولد سنة ٢ هـ وتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ. له فى الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثا.

(٣) يقصد مقاتل بن سليمان البلخى المفسر.

(٤) سورة ق: الآية ٣٨. واللغوب: التعب والإعياء.

(٥) سورة ق: الآية ١٥.

أى أنهم التبس عليهم اعادة الخلق خلقاً جديداً ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان، فانه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والأرادات والصناعات... كل ذلك من نطفة ماء. فلو أنصف العبد ربه لأكتفى بفكره فى نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته. ثم أخبر سبحانه عن احاطة علمه به، حتى علم وساوس نفسه، ثم أخبرعن قربه إليه بالعلم والاحاطة وان ذلك أدنى اليه من العرق الذى هو داخل بدنه، فهو أقرب اليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق.

وقال شيخنا: المراد بقول: «نحن» أى ملائكتنا، كما قال:

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ (١)

أى إذا قرأه عليك رسولنا جبريل. قال: ويدل عليه قوله:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ (٢)

فقيد القرب المذكور بتلقى الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقى الملكين، فلا حجة فى الآية لحلولى ولا معطل.

كتابة الأعمال والقيامتين:

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه باحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التى هى أقل وقوعاً وأعظم أثراً من الأقوال. وهى غايات الأقوال ونهايتها. ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهى سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه

(١) سورة القيامة: الآية ١٨.   (٢) سورة ق: الآية ١٧.

والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذى تعجل لها قبل القيامة الكبرى. ثم ذكر القيامة الكبرى يقول:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ (١).

ثم أخبر عن أحوال الخلق فى هذا اليوم، وان كل أحد يأتى الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التى كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين. فان الله سبحانه يستشهد على العباد الحفظة والأنبياء والأمكنة التى عملوا عليها الخير والشر، والجلود التى عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من اقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟ ثم أخبر سبحانه ان الإنسان فى غفلة من هذا الشأن الذى هو حقيق بالا يغفل عنه والا يزال على ذكره وباله، وقال:

﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ (٢).

ولم يقل عنه، كما قال:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (٣)،

ولم يقل فى شك فيه، وجاء هذا فى المصدر وان لم يجىء فى الفعل فلا يقال غفلت منه ولا شككت منه كان غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال فى غفلة عنه وشك فيه. فانه جعل ما ينبغى أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة

---

(١) سورة ق: الآية ٢٠.

(٢) سورة ق: الآية ٢٢. وتمام الآية «لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد».

(٣) سورة هود الآية ١١٠. وسورة فصلت: الآية ٤٥.

والشك. ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح. فنسبة كشف هذا الغطاء عن البعد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

القرين وخصومته:

ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة، يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره: هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد([1]). وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندى. والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين، أى هذا الشخص الذى وكلت به وهذا عمله الذى أحصيته عليه. فحينئذ يقال:

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ ([2])،

وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وأن كان واحداً. وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

إحداها: أنه كفار لنعم الله وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذى هو إحسان إلى

---

(1) هو مجاهد بن جبر، المقرىء المفسر، أحد الأعلام الأثبات. (ميزان الاعتدال).

(2) سورة ق: الآية ٢٤.

نفسه من الطاعات والقرب إلى الله والخير الذى هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أى صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذ كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله الهاً آخر يعبده ويحبه ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له ويوالى فيه ويعادى فيه فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذى أطغاه وأضله. فيقول قرينه: لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار:

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ (١).

وعلى هذا، فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله. وقالت طائفة: بل قرينه ههنا هو الملك فيدعى عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة:

﴿ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢).

فيقول الرب تعالى: ﴿ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ (٣).

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢. (٢) سورة ق: الآية ٢٧.
(٣) سورة ق: الآية ٢٨.

وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتى الصافات والأعراف ، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة (ص) .

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله :

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١)

ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا يخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتى ولا أهل معصيتى . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين فى الآية . وفيها قول آخر: أن المعنى ما يغير القول عندى بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام . فيكون المراد بالقول قول المختصمين ، وهو اختيار الفراء (٢) وابن قتيبة (٣) . قال الفراء : المعنى ما يكذب عندى لعلمى بالغيب . وقال ابن قتيبة : ما يحرف القول عندى ولا يزاد فيه ولا ينقص منه . قال: لأنه قال القول عندى ولم يقل قولى ، وهذا كما يقال لا يكذب عندى . فعلى القول الأول يكون قوله :

﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (٤)

من تمام قوله : (ما يبدل القول لدى) فى المعنى، أى ما قلته ووعدت به

---

(١) سورة هود : الآية ١١٩ .

(٢) الفراء: هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمى. إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ ، وانتقل إلى بغداد فكان أكثر مقامه فيها. وتوفى فى طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ.

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، أبو محمد، ولد ببغداد سنة (٢١٣ هـ ـ ٨٢٨م) ثم سكن الكوفة. وكان من أئمة الأدب المشهورين. توفى سنة (٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩م) فى بغداد، وترك مؤلفات كثيرة، منها: «تأويل مختلف الحديث» و«أدب الكاتب» و«غريب القرآن» .

(٤) سورة ق: الآية ٢٩ .

لا بـد مـن فـعلـه . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور. وعلى الثانى يكون قد وصف نفسه بأمرين :

أحـدهمـا : أن كـمـال عـلمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه .

والثانى : أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده .

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقى فيها :

﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ (١)

واخـطأ من قال إن ذلك للنفى ، أى ليس من مزيد . والحديث الصحيح يرد هذا التأويل .

صفات أهل الجنة :

ثم أخبر عـن تـقـريب الجنة من المتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

إحـداها : أن يـكـون أوابـاً ، أى رجـاعـاً إلـى الله من معصيته إلى طـاعـتـه ، ومـن الـغـفلة عنه إلى ذكره . قال عبيد بن عمير(٢) : الأواب الـذى يـتـذكـر ذنـوبـه ثم يـسـتغفر منها . وقال سعيد بن المسيب (٣) : هو الذى يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب .

الـثـانـية : أن يـكـون حـفيظاً ، قال ابن عباس : لما أئتمنه الله عليه

---

(١) سورة ق : الآية ٣٠ .

(٢) يبدو أنه يقصد عبيداً بن عمير بن قتادة بن سعيد الليثى ، أبا عاصم . من كبار التابعين . وقد وثقه ابن معين وابن حبان وقال : مات سنة ٦٨ هـ . وقال العجلى : مكى تابعى ثقه ، كان ابن عمر يجلس إليه ويقول : لله در ابن قتادة ، ماذا يأتى به ! . (تهذيب التهذيب) .

(٣) سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب «أبو محمد» المخزومى ، سيد فقهاء التابعين ، ولد سنة ١٣ هـ ، وتوفى سنة ٩٤ هـ .

وافترضه . وقال قتادة (١) : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته . ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الأواب مستعملاً لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته . والحفيظ مستعملاً لقوة الحفظ فى الإمساك عن معاصيه ونواهيه . فالحفيظ : الممسك نفسه عما حرم عليه ، والأواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (٢)

يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد . ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه . ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه ، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله : (وجاء بقلب منيب) . قال ابن عباس : راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله . وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والاقبال عليه . ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله :

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (٣)

ثم خوفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم وأنهم كانوا أشد منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم ، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا فى البلاد ، وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب الله ؟

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، مفسرحافظ،ضرير، قال فيه الإمام أحمد بن حنبل : «أحفظ أهل البصرة» ، وكان علماً فى العربية ومفردات اللغة وأيام العرب . ولد سنة ٦١ هـ وتوفى سنة ١١٨ هـ .

(٢) سورة ق : الآية ٣٣ . وتمامها : «وجاء بقلب منيب» . .

(٣) سورة ق : الآية ٣٤ــ ٣٥ .

قال قتادة: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركاً. وقال الزجاج [1]: طوفوا وفتشوا فلم يروا محيصاً من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذى ذكر:

﴿ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [2].

ثم أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء، تكذيب لأعدائه من اليهود، حيث قالوا: انه استراح فى اليوم السابع، ثم أمر نبيه بالتأسى به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما انه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح. ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه. ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود. فقيل هو الوتر، وقيل الركعتان بعد المغرب. والأول قول ابن عباس، والثانى قول عمر وعلى وأبى هريرة والحسن بن على واحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.

ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادى برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر. وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد:

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [3].

---

(١) الزجاج: هو إبراهيم بن السرى بن سهل، أبو اسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة. ولد ومات فى بغداد (٢٤١ - ٣١١ هـ). كان فى فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد، ثم عمل مؤدباً للقاسم ابن وزير المعتضد العباسى «عبد الله بن سليمان» ثم كاتباً للقاسم عندما أصبح وزيراً. وله كتب عديدة.

(٢) سورة ق: الآية ٣٧. وأول الآية: «إن فى ذلك لذكرى لمن ..».

(٣) سورة ق: الآية ٤٢.

بالبعث ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات، فيخرجون سراعاً من غير مهلة ولا بطء ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذى ينتفع بالتذكير. وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.

فائدة

مغفرة أهل بدر

قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمر: «وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1] أشكل على كثير من الناس معناه، فان ظاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها، وذلك ممتنع. فقالت طائفة منهم ابن الجوزى[2]: ليس

(١) فى الصحيحين «أن حاطب بن أبى بلتعة كتب إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما علم النبى بذلك أرسل على بن أبى طالب، والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود خلف حاملة الكتاب، فأدركوها فى روضة «خاخ» - وهى موضع بين المدينة ومكة وهى من حمى المدينة - واستردوا الكتاب منها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياحاطب ما هذا؟ قال: يارسول الله، إنى كنت أمرءاً ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسها. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم واموالهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى. وما فعلت ذلك كفراً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد صدقكم فقال عمر: يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم».

(٢) ابن الجوزى: هو عبد الرحمن بن محمد الجوزى القرشى البغدادى، أبو الفرج، علامة عصره فى التاريخ والحديث. ولد سنة (٥٠٨ = ١١١٤م) فى بغداد وفيها توفى سنة (٥٩٧هـ = ١٢٠١م)، وترك نحو ثلاثمائة مصنف.

المراد من قوله : « اعملوا » الاستقبال ، وإنما هو للماضى ، وتقديره : أى عمل كان لكم فقد غفرته . قال : ويدل على ذلك شيئان :

أحدهما: أنه لو كان للمستقبل كان جوابه قوله : فسأغفر لكم .

والثانى: أنه كان يكون اطلاقاً فى الذنوب ولا وجه لذلك. وحقيقة هذا الجواب أنى غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم ، لكنه ضعيف من وجهين :

أحدهما: ان لفظ « اعملوا » يأباه ، فانه للاستقبال دون الماضى . وقوله : « قد غفرت لكم » لا يوجب أن يكون اعملوا مثله ، فان قوله : « قد غفرت » تحقيق لوقوع المغفرة فى المستقبل كقوله : **(أتى أمر الله)** و**(جاء ربك)** ونظائره .

الثانى: أن نفس الحديث يرده ، فإن سببه قصة حاطب وتجسسه على النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها [1] ، وهو سبب الحديث ، فهو مراد منه قطعاً . فالذى نظن فى ذلك ، والله أعلم ، أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام وأنهم قد يقارفون [2] بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك . ويكون تخصيصهم

---

(١) هذه القصة حصلت بعد بدر بست سنين ، وذلك يدل على أن المراد ما سيأتى ، ولو كان للماضى لما حسن الاستدلال به فى قصة حاطب ، لأنه صلى الله عليه وسلم خاطب به عمر منكراً عليه ما قال فى أمر حاطب . وقد أجاب بعضهم بجواب آخر: حاصلة أن صيغة الأمر فى قوله «اعملوا» للتشريف والتكريم ، فالمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك ، وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التى اقتضت محو ذنوبهم السالفة ، وتأهلوا لأن يغفر الله لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت. قال الحافظ فى الفتح: واتفقوا أن البشارة المذكورة فيا يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها. والله أعلم.

(٢) يقارفون: أى يرتكبون.

بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم، وأنهم مغفور لهم. ولا يمنع ذلك كون المغفرة حلت بأسباب تقوم بهم، كما لا يقتضى ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة. فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار على القيام بالأمر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد، وهذا محال.

ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب، فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة، ونظير هذا قوله فى الحديث الآخر: «أذنب عبد ذنباً فقال: أى رب، أذنبت ذنباً فاغفره لى، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال: رب أصبت ذنباً فاغفره لى، فقال الله: علم عبدى ان له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء»(١). فليس فى هذا اطلاق وإذن منه سبحانه له فى المحرمات والجرائم، وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب.

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب، حكم يعم كل من كانت حاله حاله، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر. وكذلك كل من بشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة اطلاق الذنوب والمعاصى له ومسامحته بترك الواجبات، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وخوفاً بعد البشارة منهم قبلها، كالعشرة المشهود لهم بالجنة. وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة، وكذلك عمر. فانهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت، ومقيدة بانتفاء موانعها، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الاطلاق، الإذن فيما شاءوا من الأعمال.

(١) رواه البخارى وابن حنبل ومسلم بألفاظ مختلفة. (راجع مختصر صحيح مسلم ــ تحقيق الألبانى ــ باب: فيمن أذنب ثم استغفر ربه).

فائدة جليلة

تفسير آية (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً)

قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (١).

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها. وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً. وأخبر أنه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها. ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها. ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان. ومن بركتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتوارى منه كل قبيح وتخرج له كل مليح. ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد وفضلات بدنه وتواريها وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه، فهى أحمل شىء للأذى وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه وأبعد من الأذى وأقرب إلى الخير.

والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول كيفما يقاد ينقاد. وحسن التعبير بمناكبها غن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً، فالماشى عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شىء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهى أعاليه. قالوا: وذلك تنبيه على أن المشى فى سهولها أيسر. وقالت طائفة: بل المناكب

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

الجوانب والنواحى، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه. والذى يظهر أن المراد بالمناكب الأعالى. وهذا الوجه الذى يمشى عليه الحيوان هو العالى من الأرض دون الوجه المقابل له، فان سطح الكرة أعلاها، والمشى إنما يقع فى سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول.

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذى أودعه فيها، فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التى يمشون فيها، وأودعها رزقهم فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجىء والأكل مما أودع فيه للساكن. ثم نبه بقوله: (وإليه النشور) على أننا فى هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابرى سبيل فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فلله ما فى ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه والحث على السير إليه والاستعداد للقائه والقدوم عليه والإعلام بأنه سبحانه يطوى هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيى أهلها بعد ما أماتهم وإليه النشور.

فائدة

الفاتحة وما تضمنته

للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية، وقوة عملية إرادية. وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والارادية. واستكمال القوة العلمية إنما

يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التى توصل إليه ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها. واستكمال القوة العلمية الارادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنته عليه، وتقصيره هو فى أداء حقه. فهو مستحيى من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون دون ذلك. وأنه لا سبيل له الى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته. فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم الذى هدى إليه أولياءه وخاصته، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط، إما بفساد فى قوته العلمية فيقع فى الضلال، وإما فى قوته العملية فيوجب له الغضب.

فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور، وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام. فإن قوله: (**الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين**) يتضمن الأصل الأول، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله. والأسماء المذكورة فى هذه السورة هى أصول الأسماء الحسنى، وهى اسم الله والرب والرحمن. فاسم الله متضمن لصفات الألوهية، واسم الرب متضمن لصفات الربوبية، واسم الرحمن متضمن لصفات الاحسان والجود والبر. ومعانى أسمائه تدور على هذا. وقوله: (**إياك نعبد وإياك نستعين**) يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه، وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه، واستعانته على عبادته. وقوله: (**اهدنا الصراط المستقيم**) يتضمن بيان ان العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم، وانه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته، فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته.

وقوله: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذى هو فساد العلم والاعتقاد، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذى سببه فساد القصد والعمل.

فأول السورة رحمة وأوسطها هداية وآخرها نعمة. وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته. والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات الهيته، فهو الاله الحق، وان جحده الجاحدون وعدل به المشركون. فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين. والله المستعان.

فائدة

طريقان لمعرفة الله

الرب تعالى يدعو عباده فى القرآن إلى معرفته من طريقين:
أحدهما: النظر فى مفعولاته.

والثاني: التفكر فى آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول كقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ (١) إلى آخرها. وقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢). وهو كثير فى القرآن.

(١) سورة البقرة: الآية ١٦٤.
(٢) سورة آل عمران: ١٩٠.

والثاني: كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ (٢).

وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (٣).

وهو كثير أيضاً.

فأما المفعولات فانها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات. فان المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختيارى من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا ارادة. ثم ما فى المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على ارادة الفاعل، وان فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى. وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته. وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه. وما فيها من الاكرام والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الاهانة والابعاد والخذلان دال على بغضه ومقته. وما فيها من ابتداء الشيء فى غاية النقص والضعف ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على امكان المعاد. وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات. وما فيها من الكمالات التى لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطى تلك الكمالات أحق بها، فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات، منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢. (٢) سورة المؤمنون: الآية ٦٨.

(٣) سورة ص: الآية ٢٩.

قال تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١)

أى أن القرآن حق فأخبر أنه لا بد أن يريهم من آياتهم المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق . ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله . فآياته شاهدة بصدقه ، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته . فهو الشاهد والمشهود له ، وهو الدليل والمدلول عليه . فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل لى على كل شىء ؟ فأى دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه . ولهذا قال الرسل لقومهم :

﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ (٢)

فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل . فالأشياء عرفت به فى الحقيقة وان كان عرف بها فى النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه .

فائدة

حديث يزيل الهم والغم

فى المسند وصحيح أبى حاتم من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال اللهم أنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فىَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى ، إلا اذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً . قالوا : يا رسول الله أفلا نتعلمهن ؟ قال : بلى ، ينبغى لمن جمعهن أن

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .   (٢) سورة إبراهيم : الآية ١٠ .

يتعلمهن » . فتضمن هذا الحديث العظيم أموراً من المعرفة والتوحيد والعبودية : منها أن الداعى به صدر سؤاله بقوله انى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته إلى أبويه آدم وحواء ، وفى ذلك تملق له واستخذاء (١) بين يديه واعتراف بأنه مملوكه وآباؤه مماليكه ، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه ، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه بل يضيع أعظم ضيعة . فتحت هذا الاعتراف : انى لاغنى بى عنك طرفة عين وليس لى من أعوذ به وألوذ به غير سيدى الذى أنا عبده ، وفى ضمن ذلك الاعتراف بأنه مربوب مدبر مأمور منهى إنما يتصرف بحكم العبودية لا بحكم الاختيار لنفسه . فليس هذا شأن العبد بل شأن الملوك والأحرار . وأما العبيد فتصرفهم على محض العبودية ، فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه فى قوله :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (٣) ،

ومن عداهم عبيد القهر والربوبية ، فاضافتهم اليه كاضافة سائر البيوت إلى ملكه ، واضافة أولئك كاضافة البيت الحرام اليه ، واضافة ناقته اليه وداره التى هى الجنة اليه ، واضافة عبودية رسوله اليه بقوله :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ (٤) ،

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ (٥) ،

﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ (٦) .

---

(١) أى انكسار.
(٢) سورة الحجر: الآية ٤٢ .
(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٣ .
(٤) سورة البقرة: الآية ٢٣ .
(٥) سورة الإسراء: الآية ١ .
(٦) سورة الجن: الآية ١٩ .

العبــودية :

وفـي الـتحـقـيـق بمعـنى قوله : (انى عبدك) التزام عبوديته من الذل والخضـوع والإنـابـة وامـتـثـال أمر سيده واجتناب نهيه ودوام الافتقار اليه واللـجـأ الـيـه والاستعانة به والتوكل عليه ، وعياذ العبد به ولياذه به وإلا يتـعلـق قـلـبـه بـغـيـره محبة وخوفاً ورجاء وفيه أيضاً انى عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حياً وميتاً، مطيعاً وعاصياً، معافى ومبتلى بالروح والـقـلـب واللـسـان والجوارح . وفـيه أيضاً أن مالى ونفسى ملك لك فإن العبد وما يملك لسيده ، وفيه أيضاً انك أنت الذى مننت على بكل ما أنا فـيـه مـن نـعـمـة فـذلـك كـلـه مـن انـعامك على عبدك . وفيه أيضاً انى لا أنصرف فيا خولتنى من مالى ونفسى إلا بأمرك ، كلما لا يتصرف العبد إلا بـاذن سـيـده ، وانـى لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نـشـوراً . فـان صـح لـه شـهـود ذلـك فقد قال انى عبدك حقيقة . ثم قال : «ناصيتى بيدك» ، أى أنت المتصرف فى ، تصرفنى كيف تشاء ، لـسـت أنـا المـتـصرف فى نفسى . وكيف يكون له فى نفسه تصرف من نـفـسـه بيد ربه وسيده وناصيته بيده وقلبه بيه أصبعين من أصابعه ، وموته وحـيـاتـه وسـعـادتـه وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه ، ليس إلى الـعـبـد مـنـه شـىء ، بـل هـو فـى قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ، ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره بل الأمر فوق ذلك .

ومـتـى شـهـد الـعـبـد ان نـاصيته ونواصى العباد كلها بيد الله وحده يـصـرفـهـم كـيـف يـشـاء لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم ولم ينزلهم منزلة المـالـكين بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين ، المتصرف فيهم سواهم والمدبر لهـم غـيرهـم ، فـمن شـهـد نفسه بهذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصـفـاً لازمـاً لـه ، ومتى شهد الناس كذلك لم يفتقر اليهم ولم يعلق أمله ورجاءه بهم فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته . ولهذا قال هود لقومه :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

وقوله: «ماض في حكمك عدل في قضاؤك» تضمن هذا الكلام أمرين:

أحدهما: مضاء حكمه في عبده.

والثاني: يتضمن حمده وعدله وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود: (**ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها**)، ثم قال: (**إن ربي على صراط مستقيم**) أي مع كونه مالكاً قاهراً متصرفاً في عباده، نواصيهم بيده فهو على صراط مستقيم. وهو العدل الذي يتصرف به فيهم فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه. فخبره كله صدق وقضاؤه كله عدل وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله، ورحمته وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

الحكم والقضاء:

وفرق بين الحكم والقضاء وجعل المضاء للحكم والعدل للقضاء، فان حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري. والنوعان نافذان في العبد ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه شاء أم أبى، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الاتمام والاكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيه ونفوذه قال: «عدل في قضاؤك» أي الحكم الذي أكملته وأتممته

---

(١) سورة هود: الآية ٥٦.

ونفذته فى عبدك عدل منك فيه. وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه، فان كان حكماً دينياً فهو ماض فى العبد، وان كان كونياً فان نفذه سبحانه مضى فيه وإن لم ينفذه اندفع عنه، فهو سبحانه يقضى(1) ما يقضى به. وغيره قد يقضى بقضاء ويقدر أمراً ولا يستطيع تنفيذه. وهو سبحانه يقضى ويمضى فله القضاء والامضاء.

وقوله: «عدل فى قضاؤك» يتضمن جميع أقضيته فى عبده من كل الوجوه، من صحة وسقم وغنى وفقر ولذة وألم وحياة وموت وعقوبة وتجاوز وغير ذلك. قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ (2)،

وقال: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ (3)

فكل ما يقضى على العبد فهو عدل فيه.

أقوال الطوائف فى القدر والعدل:

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره! فما وجه العدل فى قضائها؟ فان العدل فى العقوبة عليها غير ظاهر. قيل: هذا سؤال له شأن ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور والظلم ممتنع لذاته. قالوا: لأن الظلم هو التصرف فى ملك الغير والله له كل شىء. فلا يكون تصرفه فى خلقه إلا عدلاً.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب على ما قضاه وقدره، فلما حسن منه العقوبة على الذنب علم أنه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه على الذنب بالعقوبة والذم اما فى الدنيا واما فى

---

(1) لعل الأصوب: يمضى. (2) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(3) سورة الشورى: الآية ٤٨.

الآخرة. وصعب على هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا ان من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر. كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد واثبات الصفات، فزعموا انهم لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بانكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلاً وعدلهم تكذيباً بالقدر.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وان أضل من شاء وقضى بالمعصية وألغى على من شاء فذلك محض العدل فيه لأنه وضع الاضلال والخذلان في موضعه اللائق به، كيف ومن أسمائه الحسنى العدل الذى كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأزاح العلل ومكن من أسباب الهداية والطاعة بالاسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفق من شاء بمزيد عناية وأراد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفقه فقطع عنه فضله ولم يحرمه عدله. وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه وإيثار عدوه فى الطاعة والموافقة عليه وتناسي ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني: الا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية ولا يشكره عليها ولا يثني عليه بها ولا يحبه فلا يشاؤها له لعدم صلاحية محله.

قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [1].

وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [2].

فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحية بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور كان ذلك عدلاً فيه وإن كان مخلوقاً على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام فى هذا فى كتابنا الكبير فى القضاء والقدر.

والمقصود أن قوله صلى الله عليه وسلم: «ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك» رد على الطائفتين: القدرية [3] الذين ينكرون عموم أقضية الله فى عبده، ويخرجون أفعال العباد عن كونها بقضائه وقدره، ويردون القضاء إلى الأمر والنهى. وعلى الجبرية [4] الذين يقولون: كل مقدور عدل، فلا يبقى لقوله: «عدل فى قضاؤك» فائدة، فان العدل عندهم كل ما يمكن فعله والظلم هو المحال لذاته، فكأنه قال: ماض ونافذ فى قضاؤك. وهذا هو الأول بعينه.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٣.

(٣) ظهرت الفكرة القدرية فى عهد المتأخرين من الصحابة والتابعين، ومؤداها أن الإنسان حر الإرادة قادر على أعماله. ومن الذين قالوا بذلك معبد الجهنى، وغيلان الدمشقى، والجعد بن درهم، وقد مهد هؤلاء للمعتزلة الذين يسمون أحياناً بالقدرية. وقد تبرأ منهم متأخرو الصحابة كعبد الله بن عمر وابن عباس. (الفرق بين الفرق).

(٤) الجبرية: طائفة ظهرت فى القرن الأول الهجرى، وتسمى أيضاً «الجهمية» نسبة إلى رئيسها جهم بن صفوان الذى قال بأن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة. فلا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. والجبرية ضد القدرية. (الفرق بين الفرق).

التوسل بأسمائه تعالى:

وقوله: «أسألك بكل اسم» إلى آخره، توسل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم. وهذه أحب الوسائل اليه فانها وسيلة بصفاته وأفعاله التى هى مدلول أسمائه. وقوله: «أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى» الربيع: المطر الذى يحيى الأرض. شبه القرآن به لحياة القلوب به. وكذلك شبهه الله بالمطر، وجمع بين الماء الذى تحصل به الحياة، والنور الذى تحصل به الاضاءة والاشراق، كما جمع بينهما سبحانه فى قوله:

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ ﴾ (1)

وفى قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (2).

ثم قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (3).

وفى قوله: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ (4). الآيات

ثم قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ﴾ (5). الآية.

فتضمن الدعاء أن يحيى قلبه بربيع القرآن وان ينور به صدره فتجتمع له الحياة والنور. قال تعالى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن

---

(1) سورة الرعد: الآية ١٧.
(2) سورة البقرة: الآية ١٧.
(3) سورة البقرة: الآية ١٩.
(4) سورة النور: الآية ٣٥.
(5) سورة النور: الآية ٤٣.

﴿مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ (١)

ولما كان الصدر أوسع من القلب كان النور الحاصل له يسرى منه إلى القلب لأنه قد حصل لما هو أوسع منه. ولما كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسرى الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذى هو مادتها. ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن فانها أحرى الا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فانها تعود بذهاب ذلك. والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم، والله أعلم.

فائدة

العرش والقلب

أنزه الموجودات وأظهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتاً وقدراً وأوسعها عرش الرحمن جل جلاله. ولذلك صلح لاستوائه عليه. وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه. ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها لقربها من العرش إذ هو سقفها، وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها من كل خير.

وخلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وارادته، فهى عرش المثل الأعلى الذى هو معرفته ومحبته وارادته. قال تعالى:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (٣). فهذا من المثل الأعلى وهو: ﴿ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٤)

وقال تعالى: (وهو الذى يبدأ) مستو على قلب المؤمن فهو عرشه وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لاستواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وارادة، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وارادتها والتعلق بها، فضاق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه حتى تعود القلوب على قلبين: قلب هو عرش الرحمن ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير. وقلب هو عرش الشيطان، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم، فهو حزين على ما مضي، مهموم بما يستقبل، مغموم فى الحال.

وقد روى الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجانى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله». والنور الذى يدخل القلب إنما هو من آثار المثل الأعلى فلذلك ينفسح وينشرح، وإذا لم يكن فيه معرفة الله ومحبته فحظه الظلمة والضيق.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٠.
(٢) سورة الروم: الآية ٢٧.
(٣) سورة الشورى: الآية ١١.
(٤) سورة النحل: الآية ٦٠.

فائدة

محتوى خطاب القرآن

تأمل خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله وله الحمد كله. أزمة الأمور كلها بيده ومصدرها منه ومردها إليه، مستوياً على سرير ملكه لا تخفى عليه خافية فى أقطار مملكته، عالماً بما فى نفوس عبيده، مطلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى ويعطى ويمنع ويثيب ويعاقب ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق ويميت ويحيى ويقدر ويقضى ويدبر. الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه لا تتحرك من ذرة إلا باذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه. فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه ويمجد نفسه ويحمد نفسه وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه، ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف اليهم بأسمائه وصفاته ويتحبب اليهم بنعمه وآلائه. فيذكرهم بنعمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه وما أعلم لهم من العقوبة إن عصوه. ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيء أعمالهم وقبيح صفاتهم. ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدى السبيل. ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم اليه وشدة حاجتهم اليه من كل وجه وانهم لاغنى لهم عنه طرفة عين، ويذكر غناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغنى بنفسه عن كل ماسواه، وكل ماسواه فقير اليه

بنفسه وأنه لاينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته. ويشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم والدافع عنهم، والحامى عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجى لهم من كل كرب، والموفى لهم بوعده، وأنه وليهم الذى لاولى لهم سواه فهو مولاهم الحق ونصيرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير. فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً رحيماً جواداً جميلاً هذا شأنه فكيف لاتحبه وتنافس فى القرب منه وتنفق أنفاسها فى التودد إليه ويكون أحب اليها من كل ماسواه ورضاه آثر عندها من رضا كل ماسواه؟ وكيف لاتلهج بذكره ويصير حبه والشوق اليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها دواؤها بحيث ان فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها؟.

فائدة

المحل لا يقبل ضدين

قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده. وهذا كما أنه فى الذوات والأعيان فكذلك هو فى الاعتقادات والارادات. فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع، كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لاينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل. وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها. فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وارادته والشوق اليه والأنس به لايمكن شغله بمحبة الله وارادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره. ولا حركة اللسان بذكره والجوارح بخدمته [1]

(١) لعل الأصوب: ولاحركة للسان بذكره وللجوارح بخدمته.

إلا إذا فرغها من ذكر غيره وخدمته . فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التى لاتنفع لم يبق فيه موضع للشغل بالله ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه . وسر ذلك أن اصغاء القلب كاصغاء الأذن ، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه اصغاء ولا فهم لحديثه ، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته . فإذا نطق القلب بغير ذكره لم يبق فيه محل للنطق بذكره كاللسان . ولهذا فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه (١) خير له من أن يمتلىء شعراً» فبين أن الجوف يمتلىء بالشعر فكذلك يمتلىء بالشبه والشكوك والخيالات والتقديرات التى لا وجود لها ، والعلوم التى لاتنفع ، والمفاكهات والمضحكات والحكايات ونحوها . وإذا امتلأ القلب بذلك جاءته حقائق القرآن والعلم الذى به كماله وسعادته فلم تجد فيه فراغاً لها ولا قبولاً فتعدته وجاوزته إلى محل سواه ، كما إذا بذلت النصيحة لقلب ملآن من ضدها لامنفذ لها فيه فانه لايقبلها ولا تلج فيه لكن تمر مجتازة لامستوطنة ، ولذلك قيل :

نزه فؤادك من سوانا تلقنا ... فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا ... من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

فائدة

تفسير سورة التكاثر

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ (٢) إلى آخرها .

أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد ، وكفى بها موعظة لمن عقلها . فقوله تعالى : (ألهاكم) أى شغلكم على وجه لاتعذرون فيه .

---

(١) جاء فى القاموس : ورى القيح جوفه : أفسده .

(٢) سورة التكاثر: الآية ١ .

فان الالهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه. فان كان بقصد فهو محل التكليف، وان كان بغير قصد كقوله صلى الله عليه وسلم في الخميصة: «انها ألهتنى آنفاً عن صلاتى»(١) كان صاحبه معذوراً وهو نوع من النسيان. وفي الحديث «فلها صلى الله عليه وسلم عن الصبى» أى ذهل عنه. ويقال: لها بالشيء، أى اشتغل به. ولها عنه: إذا انصرف عنه. واللهو للقلب، واللعب للجوارح. ولهذا يجمع بينهما. ولهذا كان قوله: (ألهاكم التكاثر) أبلغ في الذم من شغلكم. فان العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض. والتكاثر تفاعل من الكثرة أى مكاثرة بعضكم لبعض. وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لاطلاقه وعمومه وأن كل ما يكاثر به العبد غيره، سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده، فهو داخل في هذا التكاثر. فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولاسيما إذا لم يحتج إليه. والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها. والتكاثر أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وهذا مذموم إلا فيما يقرب إلى الله، فالتكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة اليها. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه «انتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ألهاكم التكاثر، قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت».

تنبيه

حكم بالغات

* من لم ينتفع بعينه لم ينتفع بأذنه.

* للعبد ستر بينه وبين الله وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذى بينه وبين الله هتك الله الستر الذى بينه وبين الناس.

(١) رواه البخارى في كتاب الصلاة، ومسلم وأبو داود في اللباس.

* للعبد رب هو ملاقيه وبيت هو ساكنه، فينبغى له أن يسترضى ربه قبل لقائه ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.
* اضاعة الوقت أشد من الموت، لأن اضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.
* الدنيا من أولها إلى آخرها لاتساوى غم ساعة، فكيف بغم العمر؟.
* محبوب اليوم يعقب المكروه غدا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدا.
* أعظم الربح فى الدنيا أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها فى معادها.
* كيف يكون عاقلا من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة؟.
* يخرج العارف من الدنيا ولم يقض وطره من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربه.
* المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه.
* لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين.

دافع الخطرة [1] فإن لم تفعل صارت فكرة. فدافع الفكرة، فإن لم تفعل صارت شهوة. فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلا، فإن لم تتداركه بضده صار عادة فيصعب عليك الانتقال عنها.

* التقوى ثلاث مراتب: إحداها: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات. الثانية حميتها عن المكروهات. الثالثة: الحمية عن الفضول

(١) أى مايخطر فى البال.

ومـا لا يـعني . فالأولى تعطى العبد حياته ، والثانية تفيده صحته وقوته ، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته .

غـمـوض الحق حين تذب عنـه   يـقـلـل نـاصر الخـصـم المحـق
تـضـل عـن الـدقـيـق فـهـوم قـوم   فـتـقـضـى للـمـجل على المدق (١)

* * *

بـالله أبـلـغ مـا أسعـى وأدركـه   لا بـى ولا بـشـفـيـع لى من الناس
إذا أيـسـت وكـاد اليأس يقطعنى   جاء الرجا مسرعا من جانب اليأس

* من خلقه الله للجنة لم تزل هداياها تأتيه من المكاره ، ومن خلقه للنار لم تزل هداياها تأتيه من الشهوات .

* لما طلـب آدم الخـلـود فـى الجـنـة من جانب الشجرة عوقب بالخروج منها ، ولما طلـب يوسف الخروج من السجن من جهة صاحب الرؤيا لبث فيه بضع سنين .

مشاهد المقدور المكروه

إذا جرى عـلـى الـعـبـد مقدور يكرهه فله فيه ستة مشاهد : أحدها : مـشهد التوحيد ، وأن الله هو الذى قدره وشاءه وخلقه ، وما شاء الله كان ومـا لم يـشـأ لم يكن . الثانى : مشهد العدل ، وأنه ماض فيه حكمه عدل فـيـه قـضـاؤه . الـثـالـث : مشهد الرحمة ، وأن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه ورحمته حشوه . الرابع : مشهد الحكمة ، وأن حكمته سبحانه اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثا . الخامس : مشهد الحمد ، وأن لـه سـبـحـانـه الحـمد التام على ذلك من جميع وجوهه . السادس : مـشهد الـعبودية ، وأنه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده وأقضيته

(١) جل : عظم . دق : صغر .

بحكم كونه ملكه وعبده، فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية، فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه.

نتائج المعصية:

قلة التوفيق وفساد الرأى، وخفاء الحق وفساد القلب، وخمول الذكر، واضاعة الوقت، ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع اجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة فى الرزق والعمر، وحرمان العلم ولباس الذل وإهانة العدو وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة وكسف البال.. تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والاحراق عن النار. وأضداد هذه تتولد عن الطاعة.

فصل
إنصاف الله

طوبى لمن انصف ربه فأقر له بالجهل فى علمه والآفات فى عمله والعيوب فى نفسه والتفريط فى حقه والظلم فى معاملته. فإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به. وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه وذلك من عدله فيه فيرى فى ذلك فقره إلى ربه وظلمه فى نفسه، فإن غفرها له فبمحض احسانه وجوده وكرمه. ونكتة المسألة وسرها أنه لا يرى ربه إلا محسنا ولا يرى نفسه إلا مسيئا أومفرطا أومقصرا فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه واحسانه إليه وكل ما يسوؤه من ذنوبه وعدل الله فيه.

المحبوب إذا خربت منازل أحبائهم قالوا سقيا لسكانها. وكذلك المحب إذا أتت عليه الأعوام تحت التراب ذكر حينئذ حسن طاعته له في الدنيا وتودده إليه وتجدد رحمته وسقياه لمن كان ساكنا في تلك الأجسام البالية.

فائدة

الغيرة نوعان

الغيرة غيرتان: غيرة على الشيء وغيرة من الشيء. فالغيرة على المحبوب حرصك عليه، والغيرة من المكروه أن يزاحمك عليه. فالغيرة على المحبوب لا تتم إلا بالغيرة من المزاحم، وهذه تحمد حيث يكون المحبوب تقبح المشاركة في حبه كالمخلوق، وأما من تحسن المشاركة في حبه كالرسول والعالم بل الحبيب القريب سبحانه فلا يتصور غيرة المزاحمة عليه بل هو حسد. والغيرة المحمودة في حقه أن يغار المحب على محبته له أن يصرفها إلى غيره أويغار عليها أن يطلع عليها الغير فيفسدها عليه أويغار على أعماله أن يكون فيها شيء لغير محبوبه أويغار عليها أن يشوبها مايكره محبوبه من رياء أواعجاب أومحبة لاشراف غيره عليها أوغيبته عن شهود منته عليه فيها.

وبالجملة، فغيرته تقتضى أن تكون أحواله وأعماله وأفعاله كلها لله. وكذلك يغار على أوقاته أن يذهب منها وقت في غير رضا محبوبه، فهذه الغيرة من جهة العبد وهي غيرة من المزاحم له المعوق القاطع له عن مرضاة محبوبه. وأما غيرة محبوبه عليه فهي كراهية أن ينصرف قلبه عن محبته إلى محبة غيره، بحيث يشاركه في حبه، ولهذا كانت غيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه، ولأجل غيرته سبحانه حرم الفاحشة ما ظهر منها وما بطن، لأن الخلق عبيده واماؤه فهو يغار على امائه كما يغار السيد

على جواريه، ولله المثل الأعلى. ويغار على عبيده أن تكون محبتهم لغيره، بحيث تحملهم تلك المحبة على عشق الصور ونيل الفاحشة منها.

من عظم وقار الله فى قلبه أن يعصيه وقره الله فى قلوب الخلق أن يذلوه.

إذا علقت شروش(١) المعرفة فى أرض القلب نبتت فيه شجرة المحبة، فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة، فلاتزال الشجرة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها.

أول منازل القوم: اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا. وأوسطها: هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور. وآخرها: تحيتهم يوم يلقونه سلام.

أرض الفطرة رحبة قابلة لما يغرس فيها، فإن غرست شجرة الإيمان والتقوى أورثت حلاوة الأبد، وان غرست شجرة الجهل والهوى فكل الثمر مر.

ارجع إلى الله واطلبه من عينك وسمعك وقلبك ولسانك ولاتشرد عنه من هذه الأربعة، فما رجع من رجع إليه بتوفيقه إلا منها، وما شربه ماشرد عنه بخذلانه إلا منها، فالموفق يسمع ويبصر ويتكلم ويبطش بمولاه، والمخذول يصدر ذلك عنه بنفسه وهواه.

مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها كمثل نواة غرستها فصارت شجرة ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها، فكلما أثمر منها شيء جنيت ثمره وغرست نواه. وكذلك تداعى المعاصى، فليتدبر اللبيب هذا المثال. فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

---

(١) الشروش فى عرف أهل الشام: جذور النبات وأصول الشيىء.

ليس العجب من مملوك يتذلل لله ويتعبد له ولا يمل من خدمته مع حاجته وفقره إليه، إنما العجب من مالك يتحبب إلى مملوكه بصنوف انعامه ويتودد إليه بأنواع احسانه مع غناه عنه.

كفى بك عزا أنك له عبد وكفى بك فخرا انه لك رب

فصل
حكم متفرقة

* إياك والمعاصي فإنها أذلت عز «اسجدوا» وأخرجت اقطاع «اسكن».
* يا لها لحظة أثمرت جرارة القلق ألف سنة ما زال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص ويرسلها مع أنفاس الأسف حتى جاءه توقيع فتاب عليه.
* فرح إبليس بنزول آدم من الجنة، وما علم أن هبوط الغائص في اللجة (1) خلف الدر صعود.
* كم بين قوله لآدم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (2)

وقوله لك: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ (3)،
ما جرى على آدم هو المراد من وجوده لو لم تذنبوا.

* يا آدم لا تجزع من قولي لك: ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا .. (4)

فلك ولصالح ذريتك خلقتها. يا آدم كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك. يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك، فقد استخرج منك داء العجب وألبست خلعة العبودية «.. وعسى أن تكرهوا ..». يا آدم لم أخرج اقطاعك

---

(1) اللجة: تردد أمواج البحر.
(2) سورة البقرة: الآية ٣٠.
(3) سورة الإسراء: الآية ٦٣.
(4) سورة الأعراف: الآية ١٨.

إلى غيرك إنما نحيتك عنه لأكمل عمارته لك، وليبعث إلى العمال نفقة «.. تتجافى جنوبهم ..». تا لله ما نفعه عند معصيته عز «اسجدوا ..» ولا شرف «وعلم آدم ..» ولا خصيصة

﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (١)

ولا فخر ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (٢)

وإنما انتفع بذل: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ (٣)

لما لبس درع التوحيد على بدن الشكر وقع سهم العدو منه فى غير مقتل فجرحه فوضع عليه جبار الانكسار فعاد كما كان فقام الجريح كأن لم يكن به قلبة (٤).

فصل

سلمان الفارسى

نجائب (٥) النجاة مهيأة للمراد، وأقدام المطرود موثوقة بالقيود. هبت عواصف الأقدار فى بيداء الأكوان فتقلب الوجود ونجم الخير فلما ركدت الريح إذا أبو طالب (عم الرسول صلى الله عليه وسلم) غريق فى لجة الهلاك، وسلمان (٦) على ساحل السلامة، والوليد بن المغيرة (٧) يقدم

---

(١) سورة ص: الآية ٧٥.
(٢) سورة الحجر: الآية ٢٩.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٣.
(٤) القلبة: الألم والعلة.
(٥) نجائب الإبل: خيارها، ونجائب الأشياء: لبابها وخالصها.
(٦) أصل سلمان الفارسى من مجوس أصبهان، واختلف فى أسمه قبل الإسلام. نشأ فى قرية جيان ورحل إلى الشام فالموصل، فنصيبين، فعمورية، فالمدينة المنورة حيث أسلم. وقصة إسلامه قصة طويلة طريفة، رواها ابن الأثير فى أسد الغابة وغيره. وهو الذى أشار على المسلمين بحفر الخندق عندما حاصرت الأحزاب المدينة.

كان بحراً فى العلم لا ينزف، قوى الجسم وصحيح الرأى، عين أميراً على المدائن فأقام فيها حتى توفى، وقد عمر كثيراً، وكانت وفاته سنة ٣٦هـ = ٦٥٦م.

(٧) هو ابن الوليد بن المغيرة أخو خالد بن الوليد، لما أسلم حبسه أخواله فكان النبى صلى -

قومه فى التيه، صهيب (١) قد قدم بقافلة الروم، والنجاشى (٢) فى أرض الحبشة يقول: لبيك اللهم لبيك، وبلال (٣) ينادى: الصلاة خير من النوم، وأبو جهل فى رقدة المخالفة.

لما قضى فى القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه فى التمجس (٤)، فأقبل يناظر أباه فى دين الشرك، فلما علاه بالحجة لم يكن له جواب إلا القيد. وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرفوه، وبه أجاب فرعون موسى:

﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى ﴾ (٥)

وبه أجاب الجهمية (٦) الامام أحمد لما عرضوه على السياط، وبه أجاب

- الله عليه وسلم يدعو له فى القنوت كما ثبت فى الصحيح: «اللهم أنج الوليد والمستضعفين من المؤمنين». ثم أفلت من الحبس ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم. يقال إنه مشى على رجليه لما هرب وطلبوه فلم يدركوه.

(١) هو صهيب بن سنان بن مالك النميرى وأمه من بنى تميم، فهو عربى الأبوين، كان أبوه عاملا لكسرى على ألابلة (البصرة)، وقد سمى بالرومى لأن الروم سبوه صغيراً، ونشأ بينهم حتى كاد ينسى العربية فأصبح ينطقها بلكنة أعجمية.

وقد تناولته الأيدى فى سوق الرقيق، كغيره من الأرقاء، حتى آل به الأمر إلى مكة المكرمة. وعندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سارع إلى اعتناق الإسلام، وكان من المستضعفين فى مكة، فعذب فى دين الله عذاباً شديداً حتى استطاع أن يشترى نفسه بماله كله وهاجر إلى المدينة. وقد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً واحداً والمشاهد كلها.

(٢) النجاشى: لقب ملك الحبشة، يقال إن إسمه أصحمة بن أبجر. وقصة إحسانه إلى المسلمين عندما هاجروا إليه معروفة ومشهورة. وقد صلى عليه النبى يوم وفاته (صلاة الغائب).

(٣) هو بلال بن رباح الحبشى، أبو عبد الله، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد السابقين إلى الإسلام، وكان من مولدى بنى جمح. عذبه المشركون، حتى أن أمية بن خلف كان يخرجه إلى بطحاء مكة إذا حميت الظهيرة، فيطرحه أرضاً ويضع على صدره صخرة كبيرة لكيفر بمحمد، وهو يقول: أحد، أحد. وبقى على هذه الحال حتى أشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه فى سبيل الله. ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أذن بلال ولم يؤذن بعد ذلك. وخرج مع جيش الفتح إلى بلاد الشام وتوفى هناك فى خلافة عمر. له فى البخارى ومسلم ٤٤ حديثاً.

(٤) أى فى دين المجوسية. (٥) سورة الشعراء: الآية ٢٩.

(٦) الجهمية: هم أتباع جهم بن صفوان الراسبى (توفى بسنة ٧٤٥هـ). وقد زعم بأن الجنة -

أهل البدع شيخ الإسلام حين استودعوه السجن (وها نحن أولاء على الأثر) فنزل به ضيف «ولنبلونكم» فنال باكرامه مرتبة «سلمان منا أهل البيت» ، فسمع أن ركباً على نية السفر، فسرق نفسه من أبيه ولا قطع، فركب راحلة العزم يرجو أدراك مطلب السعادة، فغاص فى بحر البحث ليقع بدرة الوجود، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء، فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه اعلام الأعلام على نبوة نبينا وقالوا: إن زمانه قد أظل فأحذر أن تضل، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به:

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ (١)

فأبتاعه يهودى بالمدينة، فلما رأى الحرة توقد حرا شوقه، ولم يعلم رب المنزل بوجد النازل. فبينما هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير، وسلمان فى رأس نخلة، وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم:

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾ (٢)

فعجل النزول لتلقى ركب البشارة ولسان حاله يقول:

خليل من نجد قفا بى على الربا　　　فقد هب من تلك الديار نسيم

فصاح به سيده مالك: انصرف إلى شغلك. فقال:

ــ كيف انصرافى ولى فى داركم شغل؟

ثم أخذ لسان حاله يترنم لو سمع الأطروش (٣):

خليلى لا والله. ما أنا منكما　　　إذا علم من آل ليلى بداليا

- والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به. وأنه لا فعل ولا عمل لأحد غير الله، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز. وأن علم الله حادث وغير ذلك من الضلالات.

(١) سورة يوسف: الآية ٢٠.　　　(٢) سورة القصص: الآية ١٠.

(٣) الأطروش: الأطرش الذى لا يسمع.

فلما لقى الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه : «يا محمد أنت تريد أبا طالب ونحن نريد سلمان ، أبو طالب إذا سئل عن اسمه قال عبد مناف و وإذا انتسب افتخر بالآباء ، وإذا ذكرت الأموال عد الابل . وسلمان إذا سئل عن اسمه قال عبد الله ، وعن نسبه قال ابن الإسلام ، وعن ماله قال الفقر ، وعن حانوته قال المسجد ، وعن كسبه قال الصبر ، وعن لباسه قال التقوى والتواضع ، وعن وساده قال السهر ، وعن فخره قال سلمان منا ، وعن قصده قال يريدون وجهه ، وعن سيره قال إلى الجنة ، وعن دليله فى الطريق قال إمام الخلق وهادى الأئمة » .

إذا نحن أدلجنا (١) وأنت إمامنا   كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا
وإن نحن أضللنا الطريق ولم نجد   دليلا كفانا نور وجهك هاديا

عبر وعظات :

— الذنوب جراحات ، ورب جرح وقع فى مقتل .

— لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة له .

— دخلت دار الهوى فقامرت بعمرك .

— إذا عرضت نظرة لا تحل فاعلم أنها مسعر حرب فاستتر منها بحجاب «قل للمؤمنين» ، فقد سلمت من الأثر وكفى الله المؤمنين القتال .

— بحر الهوى إذا مد أغرق ، وأخوف المنافذ على السابح فتح البصر فى الماء

ما أحد أكرم من مفرد   فى قبره أعماله تونسه
منعما فى القبر فى روضة   ليس كعبد قبره محبسه

* * *

(١) أدلج القوم : ساروا من أول الليل .

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه ويعرف عنه الصبر فيا يصيبه
ومن قل فيا يتقيه اصطباره فقد قل مما يرتجيه نصيبه

ــ كمْ قطع زرع قبل التمام فما ظن الزرع المستحصد.

ــ اشتر نفسك، فالسوق قائمة والثمن موجود.

ــ لابد من سنة الغفلة ورقاد الهوى، ولكن لن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون: دنا الصباح.

ــ نور العقل يضىء فى ليل الهوى فتلوح جادة الصواب فيتلمح البصير فى ذلك النور عواقب الأمور.

ــ إخرج بالعزم من هذا الفناء[1] الضيق المحشو بالآفات إلى ذلك الفناء الرحب الذى فيه مالاعين رأت، فهناك لايتعذر مطلوب ولايفقده محبوب.

ــ ياباثعا نفسه بهوى من خبه ضنى، ووصله أذى، وحسنه إلى فناء، لقد بعت أنفس الأشياء بثمن بخس كأنك لم تعرف قدر السلعة ولاخسة الثمن، حتى إذا قدمت يوم التغابن[2] تبين لك الغبن فى عقد التبايع: لا إله إلا الله سلعة، الله مشتريها وثمنها الجنة والدلال الرسول، ترضى ببيعها بجزء يسير مما لايساوى كله جناح بعوضة:

إذا كان شىء لايساوى جميعه جناح بعوض عند من صرت عبده
ويملك جزء منه كلك ما الذى يكون على ذى الحال قدرك عنده
وبعت به نفسا قد استامها[3] بما لديه من الحسنى وقد زال وده

ــ يامخنث العزم أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى فى النار الخليل، وأضجع للذبح اسماعيل، وبيع

(١) الفناء، بكسر الفاء: المتسع أمام الدار، ويجمع على أفنية.
(٢) أى يوم القيامة.
(٣) السوم: عرض السلعة بيع.

يوسف بثمن بخس ولبث فى السجن بضع سنين ، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد صلى الله عليه وسلم تزها أنت باللهو واللعب .

فيا دارها بالحزن إن مزارها   قريب ، ولكن دون ذلك أهوال

— الحرب قائمة وأنت أعزل فى النظارة (١)، فإن حركت ركابك فللهزيمة .

— من لم يباشر حر الهجير فى طلاب المجد لم يقل فى ظلال الشرف (٢)

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا   ولم تدر أنى للمقام أطوف

— قيل لبعض العباد : إلى كم تتعب نفسك ؟ فقال : راحتها أريد .

— يا مكرما بحلة الايمان بعد حلة العافية وهو يخلقها فى مخالفة الخالق لاتنكر السلب (٣) ، يستحق من استعمل نعمة المنعم فيما يكره أن يسلبها .

— عرائس الموجودات قد تزينت للناظرين ليبلوهم أيهم يؤثرهن على عرائس الآخرة ، فمن عرف قدر التفاوت آثر ما ينبغى ايثاره .

وحسان الكون لما أن بدت   أقبلت نحوى وقالت لى إلى

فتعاميت كأن لم أرها   عندما أبصرت مقصودى لدى

---

(١) أى تتنزه فى الرياض والبساتين .

(٢) لم يقل : من القيلولة ، وهى نومة منتصف النهار .

(٣) السلب مفعول تنكر ، وجملة يستحق تعليل للجملة قبلها ، وفاعل يستحق من استعمل ، وقوله أن يسلبها : مفعول يستحق .

ـ كواكب همم العارفين فى بروج عزائمهم سيارة ليس فيها زحل.

ـ يا من انحرف عن جادتهم كن فى أواخر الركب ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يراعى الساقة [١].

ـ قيل للحسن: سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حمر معقرة [٢]، فقال: إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

فائدة

عبر وحكم

* من فقد أنسه بين الناس ووجده فى الوحدة فهو صادق ضعيف. ومن وجده بين الناس وفقده فى الخلوة فهو معلول. ومن فقده بين الناس وفى الخلوة فهو ميت مطرود. ومن وجده فى الخلوة وفى الناس فهو المحب الصادق القوى فى حاله. ومن كان فتحه فى الخلوة لم يكن مزيده إلا منها. ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم. ومن كان فتحه فى وقوفه مع مراد الله حيث أقامه وفى أى شىء استعمله كان مزيده فى خلوته ومع الناس. فأشرف الأحوال الا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك ويقيمك فيه، فكن مع مراده منك ولا تكن مع مرادك منه.

* مصابيح القلوب الطاهرة فى أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع «يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار».

(١) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٢) أى مجرحة.

* وحد قس (٣) وما رأى الرسول، وكفر ابن أبى (٢) وقد صلى معه فى المسجد.

* مع الصب رى ولا ماء، وكم من عطشان فى اللجة.

* سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية (امرأة فرعون) فسيق تابوته إلى بيتها فجاء طفل منفرد عن أم إلى امرأة خالية عن ولد. فلله كم فى هذه القصة من عبرة. كم ذبح فرعون فى طلب موسى من ولد، ولسان القدر يقول: لا نربيه إلا فى حجرك.

* كان ذو البجادين (٣) يتيما فى الصغر، فكفله عمه، فنازعته نفسه

---

(١) كان قس بن ساعدة مؤمناً بالله مبشراً برسوله، يضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة، فيقال: أبلغ من قس، وهو بضم القاف وتشديد السين المهملة. روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل وفد بكر، عند قدومهم عليه، عن رجل كان فيه نازلا، يقال له قس بن ساعدة الأيادى، قالوا: هلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد رأيته بعكاز يخطب عى جمل له أورق، وهو يقول: أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تغور، وبحر يمور.. أما بعد: فإن فى السماء لخبراً، وإن فى الأرض لعبراً، ما لى أرى الناس يموتون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا كما هم فناموا! أقسم بالله قس قسماً حقاً، فما حنث ولا أثم، إن لله ديناً هو أرضى من ديننا هذا الذى نحن عليه. ثم قال أبياتاً ما أحفظها فقال: رجل من الأنصار: أنا شاهد يا رسول الله بأبى أنت وأمى، قال: فأنشدنا، قال سمعته يقول:

فى الذاهبين الأولـ	ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	تمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا	يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة	حيث صار القوم صائر

(٢) هو عبد الله بن أبى بن مالك بن الحارث، أبو الحباب، المشهور بابن سلول. رأس المنافقين فى المدينة. كان سيد الخزرج فى الجاهلية، وأظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقية.

(٣) البجاد: الكساء. واسم «ذو البجادين» عبد الله بن عبد نهم. ولما أراد القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعت أمه بجاداً لها قطعتين، ارتدى احداهما وائتزر بالأخرى، فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم «ذو البجادين».

إلى اتباع الرسول فهم بالنهوض فإذا بقية المرض مانعة فقعد ينتظر العم، فلما تكاملت صحته نفد الصبر فناداه ضمير الوجد:

إلى كم حبسها تشكو المضيقا   أثرها ربما وجدت طريقا

فقال: ياعم طال انتظارى لاسلامك وما أرى منك نشاطا. فقال: والله لئن أسلمت لانتزعن كل ما أعطيتك. فصاح الشوق: نظرة من محمد أحب إلى من الدنيا وما فيها.

ولو قيل للمجنون ليلى ووصلها   تريد أم الدنيا وما فى طواياها
لقال غبار من تراب نعالها   ألذ إلى نفسى وأشهى لبلواها

فلما تجرد للسير إلى الرسول جرده عمه من الثياب، فناولته الأم بجادا فقطعه لسفر الوصل نصفين أتزر بأحدهما وارتدى بالآخر. فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون فى ساقة الأحباب، والمحب لا يرى طول الطريق لأن المقصود يعينه.

ألا بلغ الله الحمى من يريده   وبلغ أكناف الحمى من يريدها

فلما قضى نحبه نزل الرسول صلى الله عليه وسلم يمهد له لحده وجعل يقول: «اللهم إنى أمسيت عنه راضيا فارض عنه». فصاح ابن مسعود: ياليتنى كنت صاحب القبر.

فيا مخنث العزم أقل ما فى الرقعة البيذق، فلما نهض تفرزن (١).

* رأى بعض الحكماء برذونا (٢) يسقى عليه، فقال: لو هملج (٣) هذا، لركب.

---

(١) الفرزن هو بمنزلة الوزير للسلطان، والبيذق، بالذال المعجمة، وقيل بالدال المهملة، وهو بمنزلة العساكر، وكلاهما من قطع الشطرنج معروف عند أهل اللعب به. ومنه قولهم: تفرزن البيدق: صار فرزاناً. والمعنى ظاهر أن الإنسان إذا نهض وجد فى التحصيل أدرك معالى الأمور وساد.

(٢) البرذون: يطلق على غير العربى من الخيل والبغال، غليظ الأعضاء والحوافر.

(٣) هملج: أى سار سيراً حسناً فى سرعة.

* أقدم العزم بالسلوك اندفع من بين أيديها سد القواطع .

* القواطع محن يتبين بها الصادق من الكاذب ، فإذا خضتها انقلبت أعوانا لك توصلك إلى المقصود .

فصل

الدنيا خداعة

الدنيا كامرأة بغى لا تثبت مع زوج إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها ، فلا ترضى بالدياثة .

ميزت بين جمالها وفعالها   فإذا الملاحة بالقباحة لا تفى
حلفت لنا الا تخون عهودنا   فكأنها حلفت لنا الا تفى

السير فى طلبها سير فى أرض مسبعة (١)، والسباحة فيها سباحة فى غدير التمساح . المفروح به منها هو عين المحزون عليه . آلامها متولدة من لذاتها ، وأحزانها من أفراحها .

مآرب كانت فى الشباب لأهلها   عذاب فصارت فى المشيب عذابا

طائر الطبع يرى الحبة وعين العقل ترى الشرك غير أن عين الهوى عمياء .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

تزخرفت الشهوات لأعين الطباع فغض عنها الذين يؤمنون بالغيب ووقع تابعوها فى بيداء الحسرات ، فـ :

(١) أرض مسبعة : أى أرض كثيرة السباع .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وهؤلاء يقال لهم: ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾ (٢)

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلبا لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما أنتهبه العدو منهم فى زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرت لهم الحياة حلى لهم تذكر:

﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٣)

وركب سروا والليل ملق رواقه	على كل مغبر المطالع قاتم (٤)
حدوا عزمات ضاعت الأرض بينها	فصار سراهم فى ظهور العزائم
تريهم نجوم الليل ما يتبعونه	على عاتق الشعرى وهام النعائم (٥)
إذا أطردت فى معرك الجد قصفوا	رماح العطايا فى صدور المكارم

فصل

أعجب العجاب

من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الاجابة. وأن تعرف قدر الربح فى معاملته ثم تعامل غيره. وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له. وأن تذوق ألم الوحشة فى معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته. وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض فى غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته. وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والانابة إليه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٥. (٢) سورة المرسلات: الآية ٤٦.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٣.
(٤) رواق الليل: مقدمة وجانبه. والمقصود: مسدل ظلامه.
(٥) الشعرى: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء.

وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت غنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب .

فائدة

مصدر الحرام

ما أخذ العبد ما حرم عليه إلا من جهتين احداهما : سوء ظنه بربه وأنه لو أطاعه وآثره لم يعطه خيرا منه حلالا . والثانية : أن يكون عالما بذلك وأن من ترك لله شيئا أعاضه خيرا منه ، ولكن تغلب شهوته صبره وهواه عقله . فالأول من ضعف علمه ، والثاني من ضعف عقله وبصيرته .

قال يحيى بن معاذ (1) : من جمع الله عليه قلبه فى الدعاء لم يرده .

قلت : إذا اجتمع عليه قلبه وصدقت ضرورته وفاقته وقوى رجاؤه ، فلا يكاد يرد دعاؤه.

فصل

فوائد وحكم

* لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها ، وخداع الأمل لأربابه ، وتملك الشيطان وقياد النفوس ورأوا الدولة للنفس الأمارة ، لجأوا إلى حصن التضرع والالتجاء كما يأوى العبد المذعور إلى حرم سيده .

* شهوات الدنيا كلعب الخيال ونظر الجاهل مقصور على الظاهر، فأما ذو العقل فيرى ما وراء الستر.

---

(1) يحيى بن معاذ «أبو زكريا» : واعظ ، زاهد ، أقام ببلخ ، ومات فى نيسابور سنة ٢٥٨ هـ = ٨٧٢ م . له كلمات سائرة ، مثل : «تزكية الأشرار لك هجنة بك ، وحبهم لك عيب عليك» . وغير ذلك كثير.

* لاح لهم المشتهى، فلما مدوا أيدى التناول بان لأبصار البصائر خيط الفخ، فطاروا بأجنحة الحذر وصوبوا إلى الرحيل الثانى:

﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

تلمح القوم الوجود ففهموا المقصود فأجمعوا الرحيل قبل الرحيل وشمروا للسير فى سواء السبيل، فالناس مشتغلون بالفضلات وهم فى قطع الفلوات (٢)، وعصافير الهوى فى وثاق الشبكة ينتظرون الذبح.

* وقع ثعلبان فى شبكة، فقال أحدهما للآخر: أين الملتقى بعد هذا؟ فقال: بعد يومين فى الدباغة.

* تالله ما كانت الأيام إلا مناما، فأستيقظوا وقد حصلوا على الظفر.

* ما مضى من الدنيا أحلام، وما بقى منها أمانى، والوقت ضائع بينهما.

* كيف يسالم من له زوجة لا ترحمه، وولد لا يعذره، وجار لا يأمنه، وصاحب لا ينصحه، وشريك لا ينصفه، وعدو لا ينام عن معاداته، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا متزينة، وهوى مرد، وشهوة غالبة له، وغضب قاهر، وشيطان مزين، وضعف مستول عليه. فإن تولاه الله وجذبه إليه انقهرت له هذه كلها، وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه اجتمعت عليه فكانت الهلكة.

* لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم مر ذلك فساد فى فطرهم وظلمة فى قلوبهم

---

(١) سورة يس: الآية ٢٦.

(٢) الفلوات: جمع فلوة، وهى الأرض الواسعة المقفرة.

وكدر فى أفهامهم ومحق فى عقولهم. وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتى ربى فيها الصغير وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرا. فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف والجهل مقام العلم، والرياء مقام الاخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت وراياتها قد نصبت وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

* أقشعرت الأرض وأظلمت السماء وظهر الفساد فى البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات وقلت الخيرات وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد أدلهم ظلامه فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح. وكأنكم بالباب وقد أغلق وبالرهن وقد غلق (١) وبالجناح وقد علق:

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (٢)

* اشتر نفسك اليوم، فإن السوق قائمة والثمن موجود والبضائع

---

(١) غلق الرهن: أى استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتكك فى الوقت المشروط.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

رخيصة ، وسيأتى على تلك السوق والبضائع يوم لاتصل فيه إلى قليل ولا كثير «.. ذلك يوم التغابن» «يوم يعض الظالم على يديه» .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على الا تكون كمثله وانك لم ترصد كما كان أرصدا

* العمل بغير اخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملا يثقله ولا ينفعه .

* إذا حملت على القلب هموم الدنيا وأثقالها وتهاونت بأوراده التى هى قوته وحياته ، كنت كالمسافر الذى يحمل دابته فوق طاقتها ولا يوفيها علفها ، فما أسرع ما تقف به .

ومشتت العزمات ينفق عمره حيران لا ظفر ولا اخفاق

* * *

هل السائق العجلان يملك أمره فما كل سير اليعملات وخيد[1]
رويدا باخفاف المطى فانما تداس جباه تحتها وخدود

* من تلمح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر.

* الغاية أول فى التقدير، آخر فى الوجود ، مبدأ فى نظر العقل منتهى فى منازل الوصول .

* ألفت عجز العدة،فلوعلت بك همتك ربا المعالى لاحت لك أنوار العزائم .

* انما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور.

* نزول همة الكساح[2] دلاه فى جب العذرة[3] .

---

(١) اليعملات: جمع يعمله، وهى الناقة النجيبة المطبوعة على العمل.
الوخد: ضرب من سير الإبل. و «وخد البعير وخيداً»: أسرع ووسع الخطى.
(٢) الكساح: هو الذى صنعته كنس الأوساخ من الشوارع والطرق.
(٣) العذرة: الغائط.

* بينك وبين الفائزين جبل الهوى نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطو فضل منزل تلحق بالقوم.

* الدنيا مضمار سباق وقد انعقد الغبار وخفى السابق، والناس فى المضمار بين فارس وراجل وأصحاب حمر معقرة.

سوف ترى إذا انجلى الغبارِ   أفرس تحتك أم حمار

* فى الطبع شرة، والحمية أوفق.

* لص الحرص لا يمشى إلا فى ظلام الهوى.

* بحبة المشتهى تحت فخ التلف فتفكر الذبح وقد هان الصبر.

* قوة الطمع فى بلوغ الأمل توجب الاجتهاد فى الطلب، وشدة الحذر من فوت المأمول.

* البخيل فقير لا يؤجر على فقره.

* الصبر على عطش الضر ولا الشرب من شرعة من.

* تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

* لا تسأل سوى مولاك، فسؤال العبد غير سيده تشنيع عليه.

* غرس الخلوة يثمر الأنس.

* استوحش مما لا يدوم معك، واستأنس بمن لا يفارقك.

* عزلة الجاهل فساد، وأما عزلة العالم فمعها حذاؤها وسقاؤها.

* إذا اجتمع العقل واليقين فى بيت العزلة واستحضر الفكر وجرت بينهم مناجاة:

أتاك حديث لا يمل سماعه   شهى إلينا نشره ونظامه
إذا ذكرته النفس زال عناؤها   وزال عن القلب المعنى ظلامه

* إذا خرجت من عدوك لفظة سفه فلا تلحقها بمثلها تلقحها ونسل الخصام نسل مذموم.

* حميتك لنفسك أثر الجهل بها، فلو عرفتها حق معرفتها أعنت الخصم عليها.

* إذا اقتدحت نار الانتقام من نار الغضب ابتدأت باحراق القادح.

* أوثق غضبك بسلسلة الحلم فإنه كلب إن أفلت أتلف.

* من سبقت له سابقة السعادة دل على الدليل قبل الطلب.

* إذا أراد القدر شخصا بذر فى أرض قلبه بذر التوفيق ثم سقاه بماء الرغبة والرهبة ثم أقام عليه بأطوار المراقبة واستخدم له حارس العلم فإذا الزرع قائم على سوقه.

* إذا طلع نجم الهمة فى ظلام ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها.

* إذا جن الليل تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق فى مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتوانى فى كتيبة الغفلة، فإذا حمل العزم حمل على الميمنة وانهزمت جنود التفريط، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان وردت الغنيمة لأهلها.

* سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة، النجائب(١) فى الأول وحاملات الزاد فى الأخير.

* لا تسأم من الوقوف على الباب ولو طردت، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت، فإن فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين وادخل دخول الطفيلية كف (وتصدق علينا).

---

(١) النجائب: جمع نجيبة، وهى خيار الإبل.

* يا مستفتحا باب المعاش بغير اقليد[1] التقوى، كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق.

* لو وقفت عند مراد التقوى لم يفتك مراد.

* المعاصي سد في باب الكسب، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

تالله ما جئتكم زائرا ... إلا وجدت الأرض تطوى لي
ولا انثنى عزمي عن بابكم ... إلا تعثرت بأذيالي

* الأرواح في الأشباح كالأطيار في الأبراج، وليس ما أعد للاستفراخ كمن هيئ للسباق.

* من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل وبأي شغل يشغله.

* كن من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الولد يتبع الأم.

* الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها، فكيف تعدو خلفها؟.

* الدنيا جيفة، والأسد لا يقع على الجيفة.

* الدنيا مجاز والآخرة وطن، والأوطار[2] إنما تطلب في الأوطان.

* **الاجتماع بالأخوان قسمان:**

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات:

---

(١) الأقليد: المفتاح.

(٢) الأوطار: جمع وطر، وهو الحاجة فيها مأرب وهمة.

إحداها: تزيين بعضهم لبعض. الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود. وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح إما للنفس الأمارة وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعكس ذلك.

قاعدة

لا حول ولا قوة إلا بالله

ليس في الوجود الممكن سبب واحد مستقل بالتأثير، بل لا يؤثر سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع يمنع تأثيره. هذا في الأسباب المشهودة بالعيان، وفي الأسباب الغائبة والأسباب المعنوية كتأثير الشمس في الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أخر، من وجود محل قابل، وأسباب أخر تنضم إلى ذلك السبب. وكذلك حصول الولد موقوف على عدة أسباب غير وطء الفحل، وكذلك جميع الأسباب مع مسبباتها، فكل ما يخاف ويرجى من المخلوقات فأعلى غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره على غيره إلا الله الواحد القهار، فلا ينبغي أن يرجى ولا يخاف غيره. وهذا برهان قطعي على أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل، فإنه لو فرض أن ذلك سبب مستقل واحده بالتأثير لكانت سببيته من غيره لا منه، فليس له من نفسه قوة يفعل بها، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها، فالحول والقوة التي يرجى لأجلها المخلوق ويخاف إنما هما لله وبيده في الحقيقة. فكيف يخاف

ويرجى من لا حول له ولا قوة، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فإنه على قدر خوفك من غير الله يسلط عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان. وهذا حال الخلق أجمعه وإن ذهب عن أكثرهم علما وحالا، فما شاء الله كان ولابد، ومالم يشأ لم يكن ولو اتفقت عليه الخليقة

التوحيد يدفع الشدائد

التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (١)

وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس فنجاه الله من تلك الظلمات. وفزع إليه اتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون فى الدنيا وما أعد لهم فى الآخرة. ولما فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك وادراك الغرق، لم ينفعه، لأن الايمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله فى عباده. فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذى النون التى ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربه بالتوحيد. فلا يلقى فى الكرب العظام إلا الشرك ولا ينجى منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. وبالله التوفيق.

فائدة

المحبة تتبع المعرفة

اللذة تابعة للمحبة، تقوى بقوتها وتضعف بضعفها، فكلما كانت الرغبة فى المحبوب والشوق إليه أقوى كانت اللذة بالوصول إليه أتم.

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٥

والمحبة والشوق تابع لمعرفته والعلم به، فكلما كان العلم به أتم كانت محبته أكمل، فإذا رجع كمال النعيم فى الآخرة وكمال اللذة إلى العلم والحب، فمن كان يؤمن بالله وأسمائه وصفاته وبه أعرف، كان له أحب، وكانت لذته بالوصول إليه ومجاورته والنظر إلى وجهه وسماع كلامه أتم. وكل لذة ونعيم وسرور وبهجة بالإضافة إلى ذلك كقطرة فى بحر، فكيف يؤثر من له عقل لذة ضعيفة قصيرة مشوبة بالآلام على لذة عظيمة دائمة أبد الآباد؟! وكمال العبد بحسب هاتين القوتين: العلم والحب، وأفضل العلم العلم بالله، وأعلى الحب الحب له وأكمل اللذة بحسبهما. والله المستعان.

قاعدة

حبسان مفيدان

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه فى طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الالتفات إلى غيره. وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد فى إيمانه ومعرفته. وحبس جوارحه عن المعاصى والشهوات وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه. ومتى لم يصبر على هذين الحبسين وفر منهما إلى فضاء الشهوات أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس وإما ذاهب إلى الحبس. وبالله التوفيق

التقوى

ودع ابن عون[1] رجلا فقال: عليك بتقوى الله، فإن المتقى ليست

---

(١) ابن عون: هو عبد الله الفقيه (ابن حجر).

عليه وحشة. وقال زيد بن أسلم (١): كان يقال: من اتقى الله أحبه الناس وإن كرهوا. وقال الثورى (٢) لاين أبى ذئب: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيئا. وقال سليمان بن داود (٣): أوتينا مما أوتى الناس ومما لم يؤتوا وعلمنا مما علم الناس ومما لم يعلموا، فلم نجد شيئا أفضل من تقوى الله فى السر والعلانية، والعدل فى الغضب والرضا، والقصد فى الفقر والغنى. وفى الزهد للامام أحمد أثر إلهى: «ما من مخلوق اعتصم بمخلوق دونى إلا قطعت أسباب السموات والأرض دونه، فإن سألنى لم أعطه، وإن دعانى لم أجبه، وإن استغفرنى لم أغفر له. وما من مخلوق اعتصم بى دون خلقى إلا ضمنت السموات والأرض رزقه، فإن سألنى أعطيته، وإن دعانى أجبته، وإن استغفرنى غفرت له».

فائدة جليلة

حسن الخلق من التقوى

جمع النبى صلى الله عليه وسلم بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه

---

(١) هو زيد ابن أسلم العدوى العمرى، فقيه مفسر من أهل المدينة. كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته. استقدمه الوليد بن يزيد فى جماعة من فقهاء المدينة إلى دمشق، وكان ثقة كثير الحديث. له حلقة فى المسجد الأموى.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى، من بنى ثور بن عبد مناة، أبوعبد الله، أمير المؤمنين فى الحديث تقى، ورع. كان سيد أهل زمانه فى علوم الدين. ولد ونشأ فى الكوفة. رفض عرض المنصور العباسى بتولى القضاء. وترك الكوفة سنة ١٤٤هـ إلى مكة ثم المدينة. وقد لاحقه المهدى فتوارى. وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً. وترك عدة مؤلفات.

(٣) هو سليمان بن داود العتكى الزهرانى، أبوالربيع. ولد فى البصرة وسكن بغداد. كان فاضلاً تقياً من رجال الحديث. ذكره ابن حبان فى الثقات. قال عنه ابن معين وأبوزرعة وأبوحاتم: ثقة توفى سنة (٢٣٤هـ=٨٤٩م).

وبين خلقه. فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته.

فائدة

عبر وعظات

ـ بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق، فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس، ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا (١) يلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه.

ـ صاح بالصحابة واعظ ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ (٢)

فجزعت للخوف قلوبهم فجرت من الحذر العيون (**فسألت أودية بقدرها**).

ـ تزينت الدنيا لعلى بن أبى طالب (كرم الله وجهه) فقال: «أنت طالق ثلاثا لا رجعة لى فيك». وكانت تكفيه واحدة للسنة، لكنه جمع الثلاث لئلا يتصور للهوى جواز المراجعة. ودينه الصحيح وطبعه السليم يأنفان من المحلل، كيف وهو أحد رواة حديث «لعن الله المحلل» (٣).

ـ ما فى هذه الدار موضع خلوة فاتخذه فى نفسك، لابد أن تجذبك الجواذب فاعرفها وكن منها على حذر، ولا تضرك الشواغل إذا خلوت منها وأنت فيها.

ـ نور الحق أضوأ من الشمس، فيحق لخفافيش البصائر أن تعشو عنه.

---

(١) لا: واقعة هنا للنهى. (٢) سورة الأنبياء: الآية ١.

(٣) المحلل: هو الرجل يتزوج المرأة المطلقة ثلاثاً ثم يطلقها، وذلك لتحل لزوجها الأول.

ـ الطريق إلى الله خال من أهل الشك ومن الذين يتبعون الشهوات، وهو معمور بأهل اليقين والصبر، وهم على الطريق كالأعلام ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١)

قاعدة

تأثير «لا إله إلا الله» عند الموت

لشهادة «أن لا إله إلا الله» عند الموت تأثير عظيم فى تكفير السيئات واحباطها، لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها وأقبلت بعد إعراضها وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها، واستخذت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته. وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التى كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه، وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه. فاستسلم وحده ظاهرا وباطنا، واستوى سره وعلانيته فقال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه. وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه. قد خرجت الدنيا كلها من قلبه وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله، فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه، لأنه لقى ربه بشهادة صادقه خالصة، وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيتها، فلوحصلت له الشهادة

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤.

على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا واهلها، وفر إلى الله من الناس، وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله. فلو تجردت كتجردها. عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي. والله المستعان

ماذا يملك من أمره من ناصيته بيد الله ونفسه بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وحياته بيده وموته بيده، وسعادته بيده، وشقاوته بيده، وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله بإذنه ومشيئته. فلا يتحرك إلا باذنه، ولا يفعل إلا بمشيئته. إن وكله إلى نفسه وكله إلى عجز وضيعة وتفريط وذنب وخطيئة. وإن وكله إلى غيره وكله إلى من لا يملك له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا. وإن تخلى عنه استولى عليه عدوه وجعله أسيرا له. فهو لا غنى له عنه طرفة عين، بل هو مضطر إليه على مدى الأنفاس في كل ذرة من ذراته باطنا وظاهرا. فاقته تامة إليه. ومع ذلك فهو متخلف عنه معرض عنه، يتبغض إليه بمعصيته، مع شدة الضرورة إليه من كل وجه، قد صار لذكره نسيا واتخذه وراءه ظهريا، هذا وإليه مرجعه وبين يديه موقفه

ما دام الأجل باقيا كان الرزق آتيا

* فرغ خاطرك للهم بما أمرت به ولا تشغله بما ضمن لك، فإن الرزق والأجل قرينان مضمونان. فما دام الأجل باقيا كان الرزق آتيا. وإذا سد عليك بحكمته طريقا من طرقه فتح لك برحمته طريقا أنفع لك منه فتأمل حال الجنين يأتيه غذاؤه، وهو الدم، من طريق واحدة وهو السرة، فلما خرج من بطن الأم وانقطعت تلك الطريق فتح له طريقين اثنين وأجرى له فيها رزقا أطيب وألذ من الأول لبنا خالصا سائغا. فإذا تمت مدة الرضاع وانقطعت الطريقان بالفطام فتح طرقا أربعة أكمل

منها : طعامان وشرابان، فالطعامان من الحيوان والنبات ، والشرابان من المياه والألبان ومايضاف إليهما من المنافع والملاذ. فإذا مات انقطعت عنه هذه الطرق الأربعة. لكنه سبحانه فتح له ــ إن كان سعيدا ــ طرقا ثمانية ، وهى أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء. فهكذا الرب سبحانه لايمنع عبده المؤمن شيئا من الدنيا إلا ويؤتيه أفضل منه وانفع له . وليس ذلك لغير المؤمن. فإنه يمنعه الحظ الأدنى الخسيس ولا يرضى له به ليعطيه الحظ الأعلى النفيس. والعبد لجهله بمصالح نفسه وجهله بكرم ربه وحكمته ولطفه لا يعرف التفاوت بين ما منع منه وبين ما ذخر له (١). بل هو مولع بحب العاجل وإن كان دنيئاً، وبقلة الرغبة فى الآجل وإن كان عليا . ولو أنصف العبد ربه ، وأنى له بذلك ، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك ، فما منعه إلا ليعطيه ، ولا ابتلاه إلا ليعافيه ، ولا امتحنه إلا ليصافيه ، ولا أماته إلا ليحييه ، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه وليسلك الطريق الموصلة إليه فـ

﴿ جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ (٢)

والله المستعانُ. ﴿ فَأَبَىٰ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (٣)

* من عرف نفسه اشتغل باصلاحها من عيوب الناس.
* من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.
* انفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالاخلاص وعن نفسك بشهود المنة ، فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق

أبواب النار وأصول الخطايا

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب :

---

(١) أى أدخر وخبىء له.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٢.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٩٩.

١ــ باب شبهة أورثت شكا فى دين الله.
٢ــ وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته.
٣ــ وباب غضب أورث العدوان على خلقه.

أصول الخطايا كلها ثلاثة:

١ــ الكبر: وهو الذى أصار أبليس إلى ما أصاره.
٢ــ والحرص: وهو الذى أخرج آدم من الجنة.
٣ــ والحسد: وهو الذى جر أحد ابنى آدمَ على أخيه. فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر. فالكفر من الكبر، والمعاصى من الحرص، والبغى والظلم من الحسد.

حكمة الله فى أجزاء الإنسان

جعل الله بحكمته كل جزء من أجزاء ابن آدم، ظاهرة وباطنة، آلة لشىء إذا استعمل فيه فهو كماله فالعين آلة للنظر. والأذن آلة للسماع. والأنف آلة للشم. واللسان للنطق. والفرج للنكاح. واليد للبطش. والرجل للمشى. والقلب للتوحيد والمعرفة. والروح للمحبة. والعقل آلة للتفكر والتدبر لعواقب الأمور الدينية والدنيوية وإيثار ما ينبغى إيثاره واهمال ما ينبغى إهماله.

أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.

فى السنن من حديث أبى سعيد الخدرى يرفعه «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: اتق الله فانما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا». قوله تكفر اللسان، قيل:

معناه تخضع له (١). وفى الحديث: إن الصحابة لما دخلوا على النجاشى لم يكفروا له، أى لم يسجدوا ولم يخضعوا. ولذلك قال عمرو بن العاص: أيها الملك، انهم لا يكفرون لك. وإنما خضعت للسان لأنه يريد القلب وترجمانه والواسطة بينه وبين الأعضاء. وقولها: إنما نحن بك، أى نجاتنا بك وهلاكنا بك، ولهذا قالت: فان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا.

فائدة

اتقوا الله واجملوا فى الطلب

جمع النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله:

«فاتقوا الله واجملوا فى الطلب» (٢)

بين مصالح الدنيا والآخرة، ونعيمها ولذاتها إنما ينال بتقوى الله، وراحة القلب والبدن وترك الاهتمام والحرص الشديد والتعب والعناد والكد والشقاء فى طلب الدنيا إنما ينال بالاجمال فى الطلب، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخرة ونعيمها، ومن أجمل فى الطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها، فالله المستعان.

قد نادت الدنيا على نفسها … لو كان فى ذا الخلق من يسمع
كم واثق بالعيش أهلكته … وجامع فرقت ما يجمع

---

(١) قال ابن الأثير فى النهاية بعد ما أورد الحديث أى تذل وتخضع، والتكفير هو أن ينحنى الإنسان ويطأطئ رأسه قريباً من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه.

(٢) رواه ابن ماجه فى التجارات.

فائـدة

المـأثم والمغـرم

جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين المأثم والمغرم (١)، فإن المأثم يوجب خسارة الآخرة، والمغرم يوجب خسارة الدنيا.

فائـدة

الجهـاد

قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد (٣): والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الاخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

---

(١) أي في التعوذ منها، والمغرم عكس المغنم، ما يجب أداؤه.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٣) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم: صوفي من العلماء بالدين. مولده ونشأته ووفاته في بغداد، قال أحد معاصريه: ما رأت عيناي مثله، الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وقال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف، لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة.

فصل
عداوة العقل والهوى

ألقى الله سبحانه العداوة بين الشيطان وبين الملك، والعداوة بين العقل وبين الهوى، والعداوة بين النفس الأمارة وبين القلب. وابتلى العبد بذلك وجمع له بين هؤلاء، وأمد كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالا (١) ودولا بين الفريقين إلى أن يستولى أحدهما على الآخر ويكون الآخر مقهورا معه. فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم. وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان فهنالك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس الملك. فما ظنك بملك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له، ومع هذا فلا يتحرك لطلب ثأره ولا يستغيث بمن يغيثه ولا يستنجد بمن ينجده. وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر وغالب لا يغلب وعزيز لا يذل، فأرسل إليه: إن استنصرتنى نصرتك وإن استغثت بى أغثتك وإن التجأت إلى أخذت بثأرك وإن هربت إلى وأويت إلىّ سلطتك على عدوك وجعلته تحت أسرك

فإن قال هذا الملك المأسور: قد شد عدوى وثاقى وأحكم رباطى واستوثق منى بالقيود ومنعنى من النهوض إليك والفرار إليك والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جندا من عندك يحل وثاقى ويفك قيودى ويخرجنى من حبسه، أمكننى أن أوافى بابك، وإلا لم يمكننى مفارقة محبسى ولا كسر قيودى.

---

(١) الحرب السجال: التى يكون النصر فيها كل مرة لطرف.

فإن قال ذلك احتجاجا على ذلك السلطان ودفعا لرسالته ورضا بما هو فيه عند عدوه، خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ما تولى

وإن قال ذلك افتقارا إليه واظهارا لعجزه وذله وأنه أضعف وأعجز أن يسير إليه بنفسه ويخرج من حبس عدوه ويتخلص منه بحوله وقوته، وأن من تمام نعمته ذلك عليه كما أرسل إليه هذه الرسالة أن يمده من جنده ومماليكه بمن تعينه على الخلاص ويكسر باب محبسه ويفك قيوده، فإن فعل به ذلك فقد أتم انعامه عليه، وإن تخلى عنه فلم يظلمه ولا منعه حقا هو له. وإن حمده وحكمته اقتضى منعه وتخليته فى محبسه، ولا سيما إذا علم أن الحبس حبسه وأن هذا العدو الذى حبسه مملوك من مماليكه وعبد من عبيده، ناصيته بيده لا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته، فهو غير ملتفت إليه ولا خائف منه ولا معتقد أن له شيئا من الأمر ولا بيده نفع ولا ضر، بل هو ناظر إلى مالكه ومتولى أمره ومن ناصيته بيده قد أفرده بالخوف والرجاء والتضرع إليه والالتجاء والرغبة والرهبة، فهناك تأتيه جيوش النصر و الظفر

مراتب العلوم

أعلى الهمم فى طلب العلم طلب علم الكتاب والسنة والفهم عن الله ورسوله نفس المراد وعلم حدود المنزل. وأخس همم طلاب العلم قصر همته على تتبع شواذ المسائل وما لم ينزل ولا هو واقع، أوكانت همته معرفة الاختلاف وتتبع أقوال الناس وليس له همة إلى معرفة الصحيح من تلك الأقوال. وقل أن ينتفع واحد من هؤلاء بعلمه.

وأعلى الهمم فى باب الارادة أن تكون الهمة متعلقة بمحبة الله والوقوف مع مراده الدينى الأمرى. وأسفلها أن تكون الهمة واقفة مع مراد صاحبها من الله، فهو إنما يعبده لمراده منه لا لمراد الله منه، فالأول من الله ويريد مراده، والثانى يريد من الله وهو فارغ عن إرادته.

علماء السوء

علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له، فهم فى الصورة أدلاء وفى الحقيقة قطاع الطرق.

إذا كان الله وحده حظك ومرادك فالفضل كله تابع لك يزدلف (١) إليك، أى أنواعه تبدأ به، وإذا كان حظك ما تنال منه فالفضل موقوف عنك لأنه بيده تابع له فعل من أفعاله، فإذا حصل لك حصل لك الفضل بطريق الضمن والتبع، وإذا كان الفضل مقصودك لم يحصل الله بطريق الضمن والتبع، فإن كنت قد عرفته وأنست به ثم سقطت إلى طلب الفضل حرمك إياه عقوبة لك ففاتك الله وفاتك الفضل.

فائدة

انتصار الرسول

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصر العدو دخل فى حصر النصر، فعبثت أيدى سراياه بالنصر فى الأطراف فطار ذكره فى الآفاق فصار الخلق معه ثلاثة أقسام: مؤمن به، ومسالم له، وخائف منه. ألقى بذر الصبر فى مزرعة

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٢)

فإذا أغصان النبات تهتز بخزامى (٣)

---

(١) أى يتقدم ويقترب. (٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٣) الخزامى: جنس نبات أنواعه عطرة، والخزامة: حلقة من الشعر توضع فى ثقب أنف البعير، وجمعها خزائم.

﴿ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ﴾ [1]

فدخل مكة دخولا ما دخله أحد قبله ولا بعده. حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم إلا الحدق [2]. والصحابة على مراتبهم، والملائكة فوق رؤوسهم، وجبريل يتردد بينه وبين ربه، وقد أباح له حرمه الذى لم يحله لأحد سواه، فلما قايس بين هذا اليوم وبين يوم

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [3]

فأخرجوه ثانى اثنين.

دخل وذقنه تمس قربوس [4] سرجه خضوعا وذلا لمن ألبسه ثوب هذا العز الذى رفعت إليه فيه الخليقة رؤوسها ومدت إليه الملوك أعناقها. فدخل مكة مالكا مؤيدا منصورا. وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يجر فى الرمضاء على جمر الفتنة، فنشر بزا [5] طوى عن القوم من يوم قوله: «أحد أحد». ورفع صوته بالأذان، فأجابته القبائل من كل ناحية، فأقبلوا يؤمون الصوت، فدخلوا فى دين الله أفواجا وكانوا قبل ذلك يأتون آحادا. فلما جلس الرسول على منبر العز، وما نزل عنه قط، مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه. فمنهم من سلم إليه مفاتيح البلاد، ومنهم من سأله الموادعة والصلح، ومنهم من أقر بالجزية والصغار، ومنهم من أخذ فى الجمع والتأهب للحرب، ولم يدر أنه لم يزد على جمع الغنائم وسوق الأسارى إليه. فلما تكامل نصره وبلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاءه منشور:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ

---

(1) سورة البقرة: الآية ١٩٤. (2) الحدق: جمع حدقة، وهى سواد العين.

(3) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(4) قربوس السرج: قسم السرج المقوس المرتفع فى مقدم المقعد وفى مؤخره، فهما قربوسان.

(5) البز: نوع من الثياب تصنع من الكتان أو القطن.

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (١)

وبعده توقيع:

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ (٢)

جاءه رسول ربه يخيره بين المقام فى الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء ربه شوقا إليه، فتزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك.

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه (٣) فرحا واستبشاراً بقدوم روحه، فكيف بقدوم روح سيد الخلائق؟ فيا منتسبا إلى غير هذا الجناب، ويا واقفا بغير هذا الباب، ستعلم يوم الحشر أى سريرة تكون عليها «يوم تبلى السرائر».

فصل
غرور الأمانى

يا مغرورا بالأمانى: لعن أبليس وأهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها. وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها. وحجب القاتل عنها (أى الجنة) بعد أن رآها عيانا بملء كف من دم. وأمر بقتل الزانى أشنع القتلات بايلاج قدر الأنملة فيما لا يحل. وأمر بايساع الظهر سياطا (أى بالجلد) بكلمة قذف أوبقطرة من مسكر. وأبان عضوا من أعضائك

(١) سورة الفتح: الآية ١ – ٣ (٢) سورة النصر: الآية ١، ٢.

(٣) أى بعض أتباع الرسول الكريم، وهو سعد بن معاذ الأنصارى، كبير الأوس يشير بذلك إلى حديث ورد فى البخارى بهذا المعنى.

بثلاثة دراهم[1] فلا تأمنه أن يحبسك فى النار بمعصية واحدة من معاصيه

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ [2]

دخلت امرأة النار فى هرة[3]. وأن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة، فإذا كان عند الموت جار فى الوصية[4] فيختم له بسوء عمله فيدخل النار. العمر بآخره والعمل بخاتمته.

من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعا، ومن أساء فى آخر عمره لقى ربه بذلك الوجه. لو قدمت لقمة وجدتها[5] ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فرده بواب «سوف ولعل وعسى» كيف الفلاح بين ايمان ناقص، وأمل زائد، ومرض لا طيب له ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد، ساهيا فى غمرته، عمها[6] فى سكرته، سابحا فى لجة جهله مستوحشا من ربه، مستأنسا بخلقه، ذكر الناس فاكهته وقوته، وذكر الله حسبه وموته، لله منه جزء يسير من ظاهره، وقلبه ويقينه لغيره.

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه العدل

---

(١) أى أن الله أمر بقطع يد السارق بثلاثة دراهم يسرقها.

(٢) سورة الشمس: الآية ١٥.

(٣) الحديث: «دخلت امرأة النار فى قطة حبستها، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض» (البخارى فى بدء الخلق ــ مسلم فى التوبة ــ ابن ماجه فى الزهد ــ الدارمى فى الرقاق).

(٤) أى أوصى بشكل يخالف أمر الله عز وجل كأن يحرم أحد أولاده، أو زوجه.

(٥) أى لو قدمتها فى الدنيا لوجدتها فى الآخرة.

(٦) العمه: التحير والتردد.

فصل
لماذا جعل آدم آخر المخلوقات

كان أول المخلوقات القلم ليكتب المقادير قبل كونها، وجعل آدم آخر المخلوقات وفى ذلك حكم، أحدها: تمهيد الدار قبل الساكن. الثانية: أنه الغاية التى خلق لأجلها ما سواه من السموات والأرض والشمس والقمر والبر والبحر. الثالثة: أن أحذق الصناع يختم عمله بأحسنه وغايته كما يبدؤه بأساسه ومبادئه. الرابعة: أن النفوس متطلعة إلى النهايات والأواخر دائما، ولهذا قال موسى للسحرة أولا:

﴿ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ (١)

فلما رأى الناس فعلهم تطلعوا إلى ما يأتى بعده. الخامسة: أن الله سبحانه أخر أفضل الكتب والأنبياء والأمم إلى آخر الزمان، وجعل الآخرة خيرا من الأولى، والنهايات أكمل من البدايات، فكم بين قول الملك للرسول اقرأ فيقول ما أنا بقارىء، وبين قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (٢)

السادسة: أنه سبحانه جمع ما فرقه فى العالم فى آدم، فهو العالم الصغير وفيه ما فى العالم الكبير. السابعة: أنه خلاصة الوجود وثمرته، فناسب أن يكون خلقه بعد الموجودات. الثامنة: أن من كرامته على خالقه أنه هيأ له مصالحه وحوائجه وآلات معيشته وأسباب حياته، فما رفع رأسه إلا وذلك كله حاضر عتيد. التاسعة: أنه سبحانه أراد أن يظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات، فقدمها عليه فى الخلق، ولهذا قالت الملائكة: ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا. فلما خلق آدم وأمرهم بالسجود له ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة، فلما وقع فى

---

(١) سورة يونس: الآية ٨٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

الـذنـب ظنـت الملائـكـة أن ذلك الفضل قد نسخ ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة ، فلما تاب إلى ربه وأتى بتلك العبودية علمت الملائكة أن لله فـي خـلـقـه سرا لا يعلمه سواه . العاشرة : أنه سبحانه لما افتتح خلق هـذا العالم بالقلم كان من أحسن المناسبة أن يختمه بخلق الإنسان ، فإن القلم آلة العلم ، والإنسان هو العالم . ولهذا أظهر سبحانه فضل آدم على الملائكة بالعلم الذى خص به دونهم .

حال إبليس مع آدم :

وتـأمـل كـيـف كـتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض ونبه الملائكة على فضله وشرفه ونوه باسمه قبل إيجاده بقوله :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١)

وتـأمل كيف وسمه بالخلافة وتلك ولاية له قبل وجوده ، وأقام عذره قبل الهـبوط بقوله : (فى الأرض) . والمحب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته . فلما صوره ألـقـاه عـلـى باب الجنة أربعين سنة لأن دأب المحب الوقوف على بـاب الحبيب ، ورمى به فى طـريق ذل (لم يكن شيئا) لئلا يعجب يوم (اسـجدوا) . وكـان أبليس يمر على جسده فيعجب منه ويقول : لأمر قد خـلـقـت ، ثم يـدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول : لئن سلطت عليك لأهـلـكـتـك ولئن سلطت على لأعصينك ، ولم يعلم أن هلاكه على يده . رأى طـيـنـا مجـموعا فاحتقره ، فلما صور الطين صورة دب فيه داء الحسد ، فـلما نـفـخ فيه الروح مات الحاسد . فلما بسط له بساط العز عرضت عليه المخـلـوقـات فـاسـتـخضر مـدعى (ونحن نسبح) إلى حاكم (أنبئونى) . وقد أخـفـى الـوكـيـل عـنـه بينة (وعلم) فنكسوا رؤوس الدعواى على صدور الاقـرار . فـقـام مـنـادى الـتـفـضيل فى أندية الملائكة ينادى : (اسجدوا) فـتـطـهـروا مـن حـدث دعـوى (ونحن) بماء العذر فى آنية (لا علم لنا) ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٠ . وراجع ما بعدها لمعرفة الآيات التالية فى قصة إبليس مع آدم .

فسجدوا على طهارة التسليم وقام ابليس ناحية لم يسجد، لأنه خبث، وقد تلون بنجاسة الاعتراض. وما كانت نجاسته تتلافى بالتطهير، لأنها عينية، فلما تم كمال آدم قيل: لا بد من خال جمال على وجه (اسجدوا)، فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية فى الذل.

يا آدم لو عفى لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون: كيف فضل ذو شره لم يصبر على شجرة. لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفاس، ولا نزلت رسائل «هل من سائل؟» ولا فاحت روائح «ولخلوف فم الصائم» (١)، فتبين حينئذ أن ذلك التناول لم يكن عن شره.

يا آدم، ضحكك فى الجنة لك، وبكاؤك فى دار التكليف لنا.

ما ضر من كسره عزى إذا جبره فضلى، إنما تليق خلعة العز ببدن الانكسار أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى. ما زالت تلك الأكلة تعاده (٢) حتى استولى داؤه على أولاده، فأرسل اليهم اللطيف الخبير الدواء على أيدى أطباء الوجود:

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (٣).

فحماهم الطبيب بالمناهى، وحفظ القوة بالأوامر، واستفرغ أخلاطهم الرديئة بالتوبة، فجاءت العافية من كل ناحية.

فيا من ضيع القوة ولم يحفظها، وخلط فى مرضه وما احتمى، ولا صبر على مرارة الاستفراغ لا تنكر قرب الهلاك، فالداء مترام إلى

---

(١) خلوف فم الصائم: رائحة فمه، عن أبى هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه من أجلى، فالصيام لىّ وأنا أجزى به، كل حسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام فهو لىّ وأنا أجزى به». (رواه مالك فى الموطأ وكذلك البخارى ومسلم والترمذى والنسائى).

(٢) أى تأتيه لعداد ووقت يتكرر ألمها فى مثله.

(٣) سورة طه: الآية ١٢٣.

الفساد. لو ساعد القدر فاعنت الطبيب على نفسك بالحمية من شهوة خسيسة ظفرت بأنواع اللذات وأصناف المشتهيات. ولكن بخار الشهوة غطى عين البصيرة، فظننت أن الحزم بيع الوعد بالنقد. يا لها من بصبرة عمياء، جزعت من صبر ساعة واحتملت ذل الأبد. سافرت فى طلب الدنيا وهى عنها زائلة، وقعدت عن السفر إلى الآخرة وهي اليها راحلة.

إذا رأيت الرجل يشترى الخسيس بالنفيس ويبيع العظيم بالحقير، فاعلم بأنه سفيه.

فصل

فوائد مختلفة

* لما سلم لآدم أصل العبودية لم يقدح فيه الذنب.

* ابن آدم، لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً، لقيتك بقرابها مغفرة.

* لما علم السيد أن ذنب عبده لم يكن قصداً لمخالفته ولا قدحاً فى حكمته، علمه كيف يعتذر إليه

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (١)

* العبد لا يريد بمعصيته مخالفة سيده ولا الجرأة على محارمه، ولكن غلبات الطبع، وتزيين النفس والشيطان، وقهر الهوى، والثقة بالعفو، ورجاء المغفرة هذا من جانب العبد. وأما من جانب الربوبية فجريان الحكم، واظهار عز الربوبية وذل العبودية، وكمال الاحتياج، وظهور آثار الأسماء الحسنى: كالعفو والغفور والتواب والحليم، لمن جاء تائباً نادماً، والمنتقم والعدل وذى البطش الشديد لمن أصر ولزم المجرة. فهو

(١) سورة البقرة: الآية ٣٧.

سبحانه يريد أن يرى عبده تفرده بالكمال ونقص العبد وحاجته اليه. ويشهده كمال قدرته وعزته وكمال مغفرته وعفوه ورحمته، وكمال بره وستره وحلمه وتجاوزه وصفحه، وان رحمته به إحسان اليه لا معارضة، وأنه ان لم يتغمده برحمته وفضله فهو هالك لا محالة. فلله كم فى تقدير الذنب من حكمة وكم فيه مع تحقيق التوبة للعبد من مصلحة ورحمة.

* التوبة من الذنب كشرب الدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة.

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صحت الأجساد بالعلل

* لولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب.

* ذنب يذل به أحب اليه من طاعة يدل بها عليه.

* شمعة النصر إنما تنزل فى شمعدان الانكسار.

* لا يكرم العبد نفسه بمثل اهانتها، ولا يعزها بمثل ذلها، ولا يريحها بمثل تعبها، كما قيل:

سأتعب نفسى أو أصادف راحة   فان هوان النفس فى كرم النفس

ولا يشبعها بمثل جوعها، ولا يؤمنها بمثل خوفها، ولا يؤنسها بمثل وحشتها من كل ما سوى فاطرها وبارئها ولا يحييها بمثل اماتتها، كما قيل:

موت النفوس حياتها   من شاء أن يحيا يموت

* شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق [1].

* من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة.

(١) الشرق: الغصة بالماء. ومنه حديث «الحرق والشرق شهادة» أى الذى يشرق بالماء فيموت.

* يا معرقلا فى شرك الهوى جزة[1] عزم وقد خرقت الشبكة، لا بد من نفوذ القدر فاجنح للسلم.

* لله ملك السموات والأرض، واستقرض منك حبة فبخلت بها، وخلق سبعة أبحر وأحب منك دمعة فقحطت عينك بها.

* اطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، والمعبود لا يرضى بمزاحمة الأصنام.

* لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك، والحور العين يعجبن من سوء اخيتارك عليهن، غير ان زوبعة الهوى إذا ثارت سفت[2] فى عين البصيرة فخفيت الجادة.

* سبحان الله، تزينت الجنة للخطاب فجدوا فى تحصيل المهر، وتعرف رب العزة إلى المحبين بأسمائه وصفاته فعملوا على اللقاء وأنت مشغول بالجيف.

لا كان من لسواك منه قلبه ولك اللسان مع الوداد الكاذب.

* المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم.

* الحب غدير فى صحراء ليست عليه جادة، فلهذا قل وارده.

* المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء والطفل إلى أمه.

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك القلب بالسر خاليا

(١) الجمز: العدو والإسراع. ويقال: هو نوع من السير أشد من العنق.
(٢) أى ذرت.

* ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى، ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد. اشتغل به فى الحياة يكفيك ما بعد الموت.

* يا منفقا بضاعة العمر فى مخالفة حبيبه والبعد منه، ليس فى أعدائك أضر عليك منك.

ما تبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

* الهمة العلية من أستعد صاحبها للقاء الحبيب، وقدم التقادم بين يدى الملتقى، فاستبشر عند القدوم:

﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(١).

* تالله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تولى عنك الولى، فلا تظن أن الشيطان. غلب ولكن الحافظ أعرض.

* احذر نفسك، فما أصابك بلاء قط إلا منها، ولا تهادنها، فوالله ما أكرمها من لم يهنها، ولا أعزها من لم يذلها ولا جبرها من لم يكسرها، ولا أراحها من لم يتعبها، ولا أمنها من لم يخوفها، ولا فرحها من لم يحزنها.

* سبحان الله، ظاهرك متجمل بلباس التقوى، وباطنك باطية (٢) لخمر الهوى، فكلما طيبت الثوب فاحت رائحة المسكر من تحته، فتباعد منك الصادقون وانحاز اليك الفاسقون.

* يدخل عليك لص الهوى وأنت فى زاوية التعبد فلا يرى منك طرداً له، فلا يزال بك حتى يخرجك من المسجد.

* أصدق فى الطلب وقد جاءتك المعونة.

* قال رجل لمعروف: علمنى المحبة، فقال: المحبة لا تجيء بالتعليم.

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٣.   (٢) الباطية: إناء القذر من فخار

هو الشوق مدلولا على مقتل الفنا(١)　　إذا لم يعد صبا بلقيا حبيبه

* ليس العجب من قوله يحبونه، إنما العجب من قوله يحبهم.

* ليس العجب من فقير مسكين يحب محسناً إليه، إنما العجب من محسن يحب فقيراً مسكيناً.

فصـــل

تجليات الرب

القرآن كلام الله وقد تجلى الله فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلى فى جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح فى الماء، وتارة يتجلى فى صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الاباء، كما قيل:

يراد من القلب نسيانكم　　وتأبى الطباع على الناقل

فتبقى المحبة له طبعاً لا تكلفاً. وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوى طِمعه وسار إلى ربه وحادى الرجاء يحدو ركاب سيره. وكلما قوى الرجاء جد فى العمل كما أن الباذر كلما قوى طمعه فى المغل غلق أرضه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤه قصر فى البذر.

---

(١) المعنى غير واضح، ولعلها: الفنى.

وإذا تجلى بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة[1] رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلى بصفات الأمر والنهى والعهد والوصية وارسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع، أنبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها والتواصى بها وذكرها وتذكرها والتصديق بالخبر والامتثال للطلب والاجتناب للنهى.

وإذا تجلى بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحيى من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفى فى سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم اليهم، ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم، أنبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض اليه والرضا به وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى به هو سبحانه. والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اخيتاره لعبده وثقته به ورضاه بما يفعله به ويختاره له.

وإذا تجلى بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت اليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار فى قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدته.

---

(١) الأعنة: جمع عنان، وهو الذى تمسك به الدابة.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات آلهيته تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الالهية المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه. ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له. وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في ألهيته، وألهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه. ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في اقباله، وغناه في اعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك ملكاً قيوماً فوق سماواته على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى من فوق سبع ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا باذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا باذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع.

فصل

فضائل أبي بكر

لما بايع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه،

فأعملت آراءها فى استخراج الحيل، فنهم من رأى الحبس، ومنهم من رأى النفى، ثم اجتمع رأيهم على القتل، فجاء البريد بالخبر من السماء وأمره أن يفارق المضجع، فبات على مكانه ونهض الصديق لرفقة السفر، فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصديق فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه[1]، وتارة عن يمينه وتارة عن شماله إلى أن انتهيا إلى الغار، فبدأ الصديق بدخوله ليكون وقاية له أن كان ثم مؤذ. وأنبت الله شجرة لم تكن قبل، فأظلت المطلوب وأضلت الطالب، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار فحاكت ثوب نسجها على منوال الستر، فأحكمت الشقة حتى عمي على القائف[2] المطلب، وأرسل (الله) حمامتين فاتخذتا هناك عشاً جعل على أبصار الطالبين غشاوة، وهذا أبلغ فى الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود.

فلما وقف القوم على رؤوسهم وصار كلامهم يسمع الرسول والصديق، قال الصديق وقد اشتد به القلق: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» لما رأى الرسول حزنه قد اشتد، لكن لا على نفسه، قوى قلبه ببشارة

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [3]،

فظهر سر هذا الاقتران فى المعية لفظاً، كما ظهر حكماً ومعنى، إذ يقال رسول الله وصاحب رسول الله، فلما مات صلى الله عليه وسلم قيل خليفة رسول الله، ثم انقطعت اضافة الخلافة بموته فقيل أمير المؤمنين.

---

(١) أى إذا ذكر الصديق الرصد الذى يكون عادة فى الأمام تقدم الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا تذكر طلب الأعداء لهما الذى يأتى من الخلف تأخر إلى ما وراء الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) القائف: الذى يتتبع الأثر. (٣) سورة التوبة: الآية ٤٠.

فأقاما في الغار ثلاثاً ثم خرجا منه ولسان القدر يقول : لتدخلنها دخولاً لم يدخله أحد قبلك ولا ينبغي لأحد من بعدك . فلما استقلا على البيداء لحقهما سراقة بن مالك ، فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول سهماً من سهام الدعاء ، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها ، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز ويقدم الزاد إلى شبعان «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» (١) كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق ، دون الجميع ، فهو الثاني في الإسلام وفي بذل النفس وفي الزهد وفي الصحبة وفي الخلافة وفي العمر، وفي سبب الموت ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مات عن أثر السم (٢)، وأبوبكر سم فات .

أسلم على يديه من العشرة عثمان وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص . وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه «ما نفعني مال، ما نفعني مال أبي بكر» . فهو خير من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك كان يكتم إيمانه والصديق أعلن به . وخير من مؤمن آل ياسين ، لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين. ساين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار ويصيح

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (٣) ،

فألقى له حب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة الصدق يغرد بفنون المدح ، ثم قال في محاريب الإسلام يتلو:

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (٤) .

---

(١) راجع البخاري — كتاب الصوم.
(٢) هذا في بعض الروايات.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٤٥ .
(٤) سورة الليل: الآية ١٧ — ١٨ .

نطقت بفضله الآيات والأخبار، واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار. فيا مبغضيه فى قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفار:
﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ (١) ؟.

دعى إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجة فما زل ولا كبا، وصبر فى مدته من مدى العدى على وقع الشبا، وأكثر فى الانفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا (٢).

تالله لقد زاد على السبك فى كل دينار دينار «ثانى اثنين إذ هما فى الغار».

من كان قرين النبى فى شبابه؟ من ذا الذى سبق إلى الايمان من أصحابه؟ من الذى أفتى بحضرته سريعاً فى جوابه؟ من أول من صلى معه؟ من آخر من صلى به؟ من الذى ضاجعه بعد الموت فى ترابه؟ فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الألحاظ. فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ. حسرة الرافضى أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار؟.

كم وقى الرسول بالمال والنفس، وكان أخص به فى حياته وهو ضجيعه فى الرمس (٣). ففضائله جلية وهى خلية عن اللبس. يا عجبا! من يغطى عين ضوء الشمس فى نصف النهار، لقد دخلا غاراً لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول: ما ظنك باثنين والله الثالث. فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث. فزال القلق

(١) سورة التوبة: الآية ٤٠.
(٢) أى حتى توفى.
(٣) الرمس: القبر.

وطاب عيش الماكث. فقام مؤذن النصر ينادى على رؤوس منائر الأمصار «ثانى اثنين إذ هما فى الغار».

حبه والله رأس الحنيفية، وبغضه يدل على خبث الطوية. فهو خير الصحابة والقرابة والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ماقيل ابن الحنفية. مهلاً مهلاً، فان دم الروافض قد فار.

والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد فى غيره هواناً، ولكن أخذنا بقول على وكفانا: «رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا». تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر[1]. تالله لقد وجب حق الصديق علينا، فنحن نقضي بمدائحه ونقر بما نقر به من السنى[2] عيناً، فمن كان رافضياً فلا يعد الينا وليقل لى أعذار.

تنبيه

حكم متفرقة

* اجتنب من يعادى أهل الكتاب والسنة لئلا يعديك خسرانه.

* احترز من عدوين هلك بهما أكثر الخلق: صاد عن سبيل الله بشبهاته وزخرف قوله، ومفتون بدنياه ورئاسته.

* من خلق فيه قوة واستعداد لشيء كانت لذته فى استعمال تلك القوة فيه، فلذة من خلقت فيه قوة واستعداد للجماع استعمال قوته فيه، ولذة من خلقت فيه قوة الغضب والتوثب استعمال قوته الغضبية فى متعلقها، ومن خلقت فيه قوة الأكل والشرب فلذته باستعمال قوته فيهما.

(١) يفهم من هذا الكلام أن المؤلف يقصد بالروافض المغالين الذين يفترون على أبى بكر والخلفاء الراشدين، ولا يقصد بالتكفير عموم الشيعة.

(٢) السنى: ضوء البرق.

ومن خلقت فيه قوة العلم والمعرفة فلذته باستعمال قوته وصرفها إلى العلم. ومن خلقت فيه قوة الحب لله والإنابة إليه والعكوف بالقلب عليه والشوق إليه والأنس به فلذته ونعيمه استعمال هذه القوة فى ذلك. وسائر اللذات دون هذه اللذة مضمحلة فانية وأحمد عاقبتها أن تكون لا له ولا عليه.

تنبيه

عبر وعظات

* يا أيها الأعزل احذر فراسة المتقى، فانه يرى عورة عملك من وراء ستر «اتقوا فراسة المؤمن» (١).

* سبحان الله. فى النفس كبر إبليس وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود وجرأة نمرود واستطالة فرعون وبغي قارون وقحة (٢) هامان وهوى بلعام (٣)، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد (٤)، وجهل أبى جهل. وفيها من أخلاق البهائم حرص الغراب، وشره الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع. غير أن

---

(١) حديث شريف رواه الترمذى فى سننه، والفراسة - بكسر الفاء - قال فى النهاية: يقال بمعنيين، أحدهما: ما دل ظاهر هذا الحديث عليه وهو ما يوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس. والثانى: نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق، فتعرف به أحوال الناس. وللناس فيه تصانيف قديمة وحديثة.

(٢) القحة: الخالص من اللؤم والكرم وكل شيء. (القاموس)

(٣) بلعام: هو عراف أرسله ملك مؤاب ليلعن إسرائيل فبارك ولم يلعن.

(٤) يبدو أنه يقصد الوليد بن المغيرة الذى نصح قومه بأن يقولوا عن الرسول «إنه ساحر» وفيه نزلت الآية: (ذرنى ومن خلقت وحيداً.. إنه كان لآياتنا عنيداً) - راجع قصته مختصر سيرة ابن هشام، ص ٤٥، دار النفائس.

الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك. فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ (١)،

فما اشترى إلا سلعة هذبها الايمان فخرجت من طبعها إلى بلد سكانه التائبون العابدون.

* سلِّم المبيع قبل أن يتلف فى يدك فلا يقبله المشترى، قد علم المشترى بعيب السلعة قبل أن يشتريها، فسلمها ولك الأمان من الرد.

* قدر السلعة يعرف بقدر مشتريها والثمن المبذول فيها والمنادى عليها، فإذا كان المشترى عظيماً والثمن خطيراً والمنادى جليلاً كانت السلعة نفيسة.

يا بائعا نفسه بيع الهوان لو استرجعت ذا البيع قبل الفوت لم تخب.

وبائع طيب عيش ما له خطر	بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبناً فاحشاً ولدى	يوم التغابن تلقى غاية الحرب
وواردا صفو عيش كله كدر	امامك الورد حقا ليس بالكذب
وحاطب الليل فى الظلماء منتصبا	لكل داهية تدنى من العطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض	فهل سمعت ببرء جاء من عطب
ومفنيا نفسه فى أثر أقبحهم	وصفا للطخ جمال فيه مستلب
وواهبا نفسه من مثل ذا سفها	لو كنت تعرف قدر النفس لم تهب
شاب الصبا والتصابى بعد لم يشب	وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها	والفىء فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من قد جد وانقشعت	عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت	ورسل ربك قد وافتك فى الطلب

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

ما فى للديار وقد سارت ركائب من ... تهواه للصب من شكر ولا أرب
فافرش الخد ذياك التراب وقل ... ما قاله صاحب الأشواق والحقب
ما ربع مية محفوفا يطيف به ... غيلان[1] أشهى له من ربعك الخرب
منازلا كان يهواها ويألفها ... أيام كان منال الوصل عن كثب
ولا الخدود ولو أدمين من ضرج ... أشهى إلى ناظرى من ربعك الخرب[2]
وكلما جليت تلك الربوع له ... يهوى اليها هوى الماء فى الصبب
أحيى له الشوق تذكار العهود بها ... فلو دعى القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه ... وما له فى سواها الدهر من رغب
ما فى الخيام أخو وجد يريحك ان ... بثثته بعض شأن الحب فاغترب
وأسر فى غمرات الليل مهتديا ... بنفحة الطيب لا بالعود والحطب
وعاد كل أخى جبن ومعجزة ... وحارب النفس لا تلقيك فى الحرب
وخذ لنفسك نوراً تستضىء به ... يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب

* * *

ان كان يوجب صبرى رحمتى فرضا ... بسوء حالى وحل للضنا بدنى
منحتك الروح لا أبغى لها ثمنا ... الا رضاك ووافقرى إلى الثمن

* * *

أحن بأطراف النهار صبابة ... وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

* * *

وإذا لم يكن من العشق بد ... فمن العجز عشق غير الجميل

* * *

(١) اسم الرجل الذى كان يعشق ميه.

(٢) الضرج: كثرة الأحرار.

فلو ان أسعى لعيش معجل   كفانى منه بعض ما أنا فيه
ولكنما أسعى لملك مخلد   فوا أسفا ان لم أكن بملاقيه

* يا من هو من أرباب الخبرة، هل عرفت قيمة نفسك؟ إنما خلقت الأكوان كلها لك.

* يا من غذى بلبان البر وقلب بأيدى الألطاف، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة، وصورة وأنت المعنى، وصدف وأنت الدر، ومخيض[1] وأنت الزبد.

* منشور اختيارنا لك واضح الخط، ولكن استخراجك ضعيف.

* متى رمت طلبى فاطلبنى عندك، أطلبنى منك تجدنى قريباً ولا تطلبنى من غيرك فأنا أقرب اليك منه.

* لو عرفت قدر نفسك عندنا ما أهنتها بالمعاصى، إنما أبعدنا ابليس إذ لم يسجد لك، وأنت فى صلب أبيك، فواعجبا كيف صالحته وتركتنا! لو كان فى قلبك محبة لبان أثرها على جسدك.

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى   ألست أرى الأعضاء منك كواسيا

* لو تغذى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات.

ولو كنت عذرى الصبابة لم تكن   بطينا وأنساك الهوى كثرة الأكل

* لو صحت محبتك لاستوحشت ممن لا يذكرك بالحبيب. واعجبا لمن يدعى المحبة ويحتاج إلى من يذكره بمحبوبه، فلا يذكره إلا بمذكر. أقل ما فى المحبة أنها لا تنسيك تذكر المحبوب.

ذكرتك لا أنى نسيتك ساعة   وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

---

(١) المخيض: اللبن إذا نزع زبده.

* إذا سافر المحبوب للقاء محبوبه ركبت جنوده معه، فكان الحب في مقدمة العسكر، والرجاء يحدو بالمطي والشوق يسوقها والخوف يجمعها على الطريق، فإذا شارف قدوم بلد الوصل خرجت تقادم الحبيب باللقاء.

فداو سقماً بجسم أنت متلفه ... وأبرد غراما بقلب أنت مضرمه
ولا تكلني على بعد الديار إلى ... صبرى الضعيف فصبرى أنت تعلمه
تلق قلبى فقد أرسلته عجلا ... إلى لقائك والأشواق تقدمه

* فإذا دخل على الحبيب أفيضت عليه الخلع (١) من كل ناحية ليمتحن أيسكن اليها فتكون حظه، أم يكون التفاته إلى من ألبسه إياها.

* ملأوا مراكب القلوب متاعاً لا تنفق إلا على الملك، فلما هبت رياح السحر أقلعت تلك المراكب، فما طلع الفجر إلا وهى بالميناء.

* قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد، فما كان القليل حتى قدموا من السفر، فأعقبهم الراحة فى طريق التلقى، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد.

* فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة، فأقاموا العيون تحرس تارة وترش أخرى.

* سرادق المحبة لايضرب إلا فى قاع نزه فارغ.

نزه فؤادك من سوانا وألقنا ... فجنابنا حل لكل منزه
الصبر طلسم لكنز وصالنا ... من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

* اعرف قدر ما ضاع وابك بكاء من يدرى مقدار الفائت.
* لو تخليت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك.

---

(١) الخلع: جمع خلعة، وهى الثوب.

* لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق منك قلبك المخمور.
* من استطال الطريق ضعف مشيه.

وما أنت بالمشتاق ان قلت بيننا طوال الليالى أو بعيد المفاوز(1)

* أما علمت أن الصادق إذا هم ألقى بين عينيه عزمه.
* إذا نزل آب فى القلب حل آذار فى العين(2).
* هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بسمع الملك.
* من لاح له حال الآخرة هان عليه فراق الدنيا.
* إذا لاح للباشق الصيد نسى مألوف الكف.
* يا أقدام الصبر أحملى بقى القليل.
* تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة.
* قد علمت أين المنزل فاحد لها تسر.
* أعلى الهمم همة من استعد صاحبها للقاء الحبيب.
* وقدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر بالرضا عند القدوم، «وقدموا لأنفسكم».
* الجنة ترضى منك بأداء الفرائض، والنار تندفع عنك بترك المعاصى، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح.
* لله ما أحلى زمان تسعى فيه أقدام الطاعة على أرض الاشتياق.
* لما سلم القوم النفوس إلى رائض الشرع علمها الوفاق فى خلاف الطبع فاستقامت مع الطاعة كيف دارت دارت معها.

وانى إذا اصطكت رقاب مطيتهم وثوب حاد بالرفاق عجول
أخالف بين الراحتين على الحشا وانظر انى ملثم فأميل

---

(1) المفاوز: جمع مفازة، وهى الصحراء والأرض القفر التى لا ماء فيها.

(2) آب هو الشهر الثانى عشر فى السنة السريانية، وآذار هو الشهر الأول. وفى آب يشتد الحر، أما فى آذار فتكثر الأمطار.

فصل

* علمت كلبك فهو يترك شهوته فى تناول ما صاده احتراماً لنعمتك وخوفاً من سطوتك. وكم علمك معلم الشرع وأنت لا تقبل.

* حرم صيد الجاهل والممسك لنفسه، فما ظن الجاهل الذى أعماله لهوى نفسه.

* جمع فيك عقل الملك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان وأنت للغالب عليك من الثلاثة: ان غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك، وان غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب.

* لما صاد الكلب لربه(١) أبيح صيده، ولما أمسك على نفسه حرم ما صاده.

* مصدر ما فى العبد من الخير والشر والصفات الممدوحة والمذمومة من صفة المعطى المانع. فهو سبحانه يصرف عباده بين مقتضى هذين الاسمين، فحظ العبد الصادق من عبوديته بها الشكر عند العطاء، والافتقار عند المنع، فهو سبحانه يعطيه ليشكره، ويمنعه ليفتقر إليه، فلا يزال شكوراً فقيراً.

وكان الكافر على ربه ظهيراً:

قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾(٢)، هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه. وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه. كما يكون خواص الملك معه على

(١) أى لصاحبه.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥٥.

حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه. وعبارات السلف على هذا تدور. ذكر ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عونا الشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان على معصية الله يعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: ظهيرا أى مواليا. والمعنى: أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معيناً له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه، ولهذا صدر الآية بقوله:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ (١)،

وهذه العبادة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه سبحانه، فانه معه على نفسه وشيطانه وهواه. وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

والذين إذا ذكروا بآيات ربهم..

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٢)،

قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صماً لم يسمعوه، وعمياناً لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به. وقال ابن عباس: لم يكونوا عليه صماً وعمياناً، بل كانوا خائفين خاشعين. وقال الكلبى (٣):

---

(١) سورة الفرقان: الآية: ٥٥. (٢) سورة الفرقان: الآية ٧٣.

(٣) يبدو أنه يقصد أبا ثور الكلبى، إبراهيم بن خالد بن أبى اليمان، الكلبى، البغدادى، وهو من فقهاء الشافعية المبرزين، قال فيه ابن حبان: «كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وورعاً وفضلاً، صنف الكتب وفرع على السنن، وذب عنها». وروى عن أحمد بن حنبل أنه قال: «هو عندى فى مسلاخ سفيان الثورى».

يخرون عليها سمعاً وبصراً. وقال الفراء: وإذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه، فذلك الخرور[1]. وسمعت العرب تقول: قعد يشتمنى كقولك: قام يشتمنى، وأقبل يشتمنى، والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صماً وعمياناً. وقال الزجاج: المعنى: إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً سامعين مبصرين كما أمروا به. وقال ابن قتيبة: أى لم يتغافلوا عنها كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها. قلت: ههنا أمران: ذكر الخرور وتسليط النفى عليه، وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه فلهم عليها خرور بالقلب خضوعاً أو بالبدن سجوداً، أو ليس هناك خرور وعبر به عن القعود؟.

أصول المعاصى

أصول المعاصى كلها، كبارها وصغارها، ثلاثة: تعلق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية، وهى الشرك والظلم والفواحش فغاية التعلق بغير الله شرك وأن يدعى معه إله آخر. وغاية طاعة القوة الغضبية القتل. وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا. ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة فى قوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [2]

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الاخلاص والتوحيد يصرفها عن صاحبه، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [3]

---

(١) الخرور: مصدر خر، أى سقط. (ميزان الاعتدال ــ الأعلام)

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٨. (٣) سورة يوسف: الآية: ٢٤.

فالسوء : العشق ، والفحشاء : الزنا . وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة ، فإن الشرك أظلم الظلم ، كما أن أعدل العدل التوحيد . فالعدل قرين التوحيد ، والظلم قرين الشرك ، ولهذا يجمع سبحانه بينهما . أما الأول ، ففي قوله :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ (١)

وأما الثاني فكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢)

والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم ، ولا سيما إذا قويت إرادتها ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشيطان . وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله :

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

فهذه الثلاثة يجر بعضها إلى بعض ويأمر بعضها ببعض . ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدا وأعظم شركا كان أكثر فاحشة وأعظم تعلقا بالصور وعشقا لها . ونظير هذا قوله تعالى :

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (٤)

فأخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه . وهذا هو التوحيد ثم قال :

---

(١) سورة آل عمران : الآية : ١٨ . (٢) سورة لقمان : الآية ١٣ .
(٣) سورة النور: الآية ٣ . (٤) سورة الشورى : الآيات ٣٦ ، ٣٧ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ (١)
فهذا اجتناب داعى القوة الشهوانية . ثم قال :
﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ (٢)
فهذا مخالفة القوة الغضبية ، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل التى هى جماع الخير كله .

فائدة

أنواع هجر القرآن والحرج منه

هجر القرآن أنواع ، أحدها : هجر سماعه والايمان به والاصغاء إليه . والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به . والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد أنه لا يفيد اليقين وأن ادلته لفظية لا تحصل العلم . والرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه . والخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل فى قوله :
﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ (٣)
وإن كان بعض الهجر أهون من بعض .

وكذلك الحرج الذى فى الصدور منه ، فإنه تارة يكون حرجا من انزاله وكونه حقا من عند الله . وتارة يكون من جهة المتكلم به أو كونه مخلوقا من بعض مخلوقاته اللهم غيره إن تكلم به ، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنه لا يكفى العباد ، بل هم محتاجون معه إلى المعقولات

(١) و (٢) سورة الشورى : الآية ٣٧ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ٣٠ .

والأقيسة أوالآراء أوالسياسات. وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أوأريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلى تأويلات مستكرهة مشتركة. وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر أوأوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة.

فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم. ولا تجد مبتدعا في دينه قط إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تحول بينه وبين ارادته. فتدبر هذا المعنى ثم ارض لنفسك بما تشاء.

فائدة

كمال النفس

كمال النفس المطلوب ماتضمن أمرين، أحدهما: أن يصير هيئة راسخة وصفة لازمة لها. الثاني: أن يكون صفة كمال في نفسه. فإذا لم يكن كذلك لم يكن كمالا، فلايليق بمن يسعى في كمال نفسه المنافسة عليه ولا الأسف على قوته، وذلك ليس إلا معرفة بارئها وفاطرها ومعبودها والهها الحق الذي لا صلاح لها ولا نعيم ولا لذة إلا بمعرفته وإرادة وجهه وسلوك الطريق الموصلة إليه وإلى رضاه وكرامته. وأن تعتاد ذلك فيصير لها هيئة راسخة لازمة. وماعدا ذلك من العلوم والارادات والأعمال فهي بين مالاينفعها ولايكملها ومايعود بضررها ونقصها والمها، ولاسيما إذا صار هيئة راسخة لها، فإنها تعذب وتتألم به بحسب لزومه لها.

وأما الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه والمال فتلك فى الحقيقة عوار[1] أعيرتها مدة، ثم يرجع فيها المعير، فتتألم وتتعذب برجوعه فيها بحسب تعلقها بها، ولاسيا إذا كانت هى غاية كمالها، فإذا سلبتها أحضرت أعظم النقص والألم والحسرة.

فليتدبر من يريد سعادة نفسه ولذتها هذه النكتة، فأكثر هذا الخلق إنما يسعون فى حرمان نفوسهم وألمها وحسرتها ونقصها من حيث يظنون أنهم يريدون سعادتها ونعيمها. فلذتها بحسب ما حصل لها من تلك المعرفة والمحبة والسلوك. وألمها وحسرتها بحسب ما فاتها من ذلك. ومتى عدم ذلك وخلا منه لم يبق فيه إلا القوى البدنية النفسانية التى بها يأكل ويشرب وينكح ويغضب وينال سائر لذاته ومرافق حياته. ولا يلحقه من جهتها شرف ولا فضيلة، بل خساسة ومنقصة. إذ كان انما يناسب بتلك القوى البهائم ويتصل بجنسها ويدخل فى جملتها ويصير كأحدها. وربما زادت فى تناولها عليه واختصت دونه بسلامة عاقبتها والأمن من جلب الضرر عليها. فكمال تشاركك فيه البهائم وتزيد عليك وتختص عنك فيه بسلامة العاقبة حقيق أن تهجره إلى الكمال الحقيقى الذى لا كمال سواه، وبالله التوفيق.

فائدة جليلة

ثواب الانشغال بالله

إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته. وأن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وانكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة

(١) عوار: جمع عارية. وهى ما يستعيره الإنسان على أن يعيده لصاحبه.

الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش فى خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه فى نفخ غيره. فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته بلى بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته. قال تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (١)

قال سفيان بن عيينة (٢): لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن. فقال له قائل: فأين فى القرآن «أعط أخاك تمرة فإن لم يقبل فاعطه جمرة؟» فقال فى قوله:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ (٢) الآية...

فائدة

أقسام العلوم

العلم: نقل صورة المعلوم من الخارج. واثباتها فى النفس. والعمل: نقل صورة علمية من النفس وإثباتها فى الخارج. فإن كان الثابت فى النفس مطابقا للحقيقة فى نفسها فهو علم صحيح. وكثيرا ما يثبت ويتراءى فى النفس صور ليس لها وجود حقيقى، فيظنها الذى قد أثبتها فى نفسه علما، وإنما هى مقدرة لا حقيقة لها. وأكثر علوم الناس من هذا الباب. وما كان منها مطابقا للحقيقة فى الخارج فهو نوعان: نوع تكمل النفس بادراكه والعلم به، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه. ونوع لا يحصل للنفس به كمال، وهو كل علم لا يضر الجهل به فإنه لا ينفع العلم به، وكان النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى، أبو محمد، ولد بالكوفة سنة (١٠٧ هـ = ٧٢٥ م)، وسكن مكة وتوفى فيها سنة (١٩٨ هـ = ٨١٤ م). كان حافظاً، ثقة، قال الشافعى فيه: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز».

يستعيذ بالله من علم لاينفع . وهذا حال أكثر العلوم الصحيحة المطابقة التى لا يضر الجهل بها شيئا ، كالعلم بالفلك ودقائقه ودرجاته ، وعدد الكواكب ومقاديرها . والعلم بعدد الجبال وألوانها ومساحاتها ونحو ذلك .

فشرف العلم بحسب شرف معلومه وشدة الحاجة إليه . وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك . وأما العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وذلك يكون من فساد العلم تارة ومن فساد الارادة تارة . ففساده من جهة العلم أن يعتقد أن هذا مشروع محبوب لله وليس كذلك ، أويعتقد أنه يقربه إلى الله وأن لم يكن مشروعا ، فيظن أنه يتقرب إلى الله بهذا العمل ، وإن لم يعلم أنه مشروع .

وأما فساده من جهة القصد فالايقصد به وجه الله والدار الآخرة ، بل يقصد به الدنيا والخلق . وهاتان الآفتان فى العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منهما إلا بمعرفة ما جاء به الرسول فى باب العلم والمعرفة وارادة وجه الله والدار الآخرة فى باب القصد والارادة . فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الارادة فسد علمه وعمله .

والإيمان واليقين يورثان صحة المعرفة وصحة الارادة ، وهما يورثان الإيمان ويمدانه . ومن هنا يتبين انحراف أكثر الناس عن الايمان لانحرافهم عن صحة المعرفة وصحة الارادة ، ولا يتم الايمان إلا بتلقى المعرفة من مشكاة النبوة ، وتجريد الارادة عن شوائب الهوى وإرادة الخلق ، فيكون علمه مقتبسا من مشكاة الوحى ، وإرادته لله والدار الآخرة ، فهذا أصح الناس علما وعملا وهو من الأئمة الذين يهدون بأمر الله ومن خلفاء رسوله فى أمته .

قاعدة

ظاهر الايمان وباطنه

الايمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته. فلا ينفع ظاهر لا باطن له وان حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إذا تعذر بعجز أو اكراه وخوف هلاك. فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الايمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته.

فالإيمان قلب الإسلام ولبه. واليقين قلب الإيمان ولبه. وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول، وكل ايمان لا يبعث على العمل فمدخول.

فائدة

التوكل على الله

التوكل على الله نوعان، أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أودفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية. والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه هو ويرضاه من الايمان واليقين والجهاد والدعوة إليه. وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله. فمتى توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية. ومتى توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه.

فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة اتباعهم.

والتوكل تارة يكون توكل اضطرار والجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولا وزرا إلا التوكل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير البتة. وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضى إلى المراد، فإن كان السبب مأمورا به ذم على تركه. وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضا، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما. وإن كان السبب محرما حرم عليه مباشرته وتوحد السبب فى حقه فى التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب فى حصول المراد ودفع المكروه، بل من أقوى الأسباب على الاطلاق. وإن كان السبب مباحا نظرت هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى، لأن حكمة أحكم الحاكمين اقتضت ربط المسبب به فلا تعطل حكمته مهما أمكنك القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل وعبودية الجوارح بالسبب المنوى به القربة. والذى يحقق التوكل القيام بالأسباب المأمور بها، فمن عطلها لم يصح توكله كما أن القيام بالأسباب المفضية إلى حصول الخير يحقق رجاءه، فمن لم يقم بها كان رجاؤه تمنيا، كما أن من عطلها يكون توكله عجزا وعجزه توكلا.

وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد: توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله، وهو مصر على معصيته مرتكب لها.

فائـدة

شكوى الجاهل

الجـاهـل يـشـكـو الله إلـى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إلـيـه، فـإنـه لـو عـرف ربـه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم. ورأى بـعـض الـسـلـف رجـلا يـشـكـو إلـى رجل فاقته وضرورته، فقال: يا هذا، والله مازدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك، وفى ذلك قيل:

وإذا شـكـوت إلـى ابـن آدم انما   تـشـكـو الرحيم الى الذى لا يرحم

والـعـارف إنمـا يـشـكـو إلى الله وحده. واعرف العارفين من جعل شكواه إلـى الله مـن نـفـسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [1]

وقوله: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [2]

وقوله: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [3]

فـالمراتـب ثـلاثـة: أخـسـهـا أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

---

(1) سورة الشورى: الآية ٣٠.   (2) سورة النساء: الآية ٧٩.

(3) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

قاعدة جليلة

«يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول»

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (١) فتضمنت هذه الآية أمورا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا. فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول.

قال مجاهد: «لما يحييكم» يعني للحق. وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم بعد موتهم بالكفر. وقال ابن اسحق وعروة بن الزبير: واللفظ له «لما يحييكم» يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقواكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم. وكل هذه عبارات عن حقيقة واحدة وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرا وباطنا. قال الواحدي والأكثرون على أن معنى قوله «لما يحييكم» هو الجهاد، وهو قول ابن اسحق واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى احياء أمركم بجهاد عدوكم يريد إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به فى الدنيا وفى البرزخ [1] وفى الآخرة. أما فى الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد. وأما فى البرزخ فقد قال تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [2]

وأما فى الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: «لما يحييكم» يعنى الشهادة. وقال بعض المفسرين: «لما يحييكم» يعنى الجنة. فإنها دار الحيوان وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو على الجرجانى.

والآية تتناول هذا كله، فإن الايمان والاسلام والقرآن والجهاد تحيى القلوب الحياة الطيبة. وكمال الحياة فى الجنة، والرسول داع إلى الايمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة الدنيا والآخرة. والانسان مضطر إلى نوعين من الحياة: حياة بدنه التى بها يدرك النافع والضار ويؤثر ما ينفعه على ما يضره. ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك. ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك. وحياة قلبه وروحه التى بها يميز بين الحق والباطل والغى والرشاد والهوى والضلال، فيختار الحق على ضده. فتفيد هذه الحياة قوة التميز بين النافع والضار فى العلوم والارادات والأعمال. وتفيد قوة الايمان والارادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل.

---

(١) البرزخ: أى ما بين الدنيا والآخرة، قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث. فمن مات فقد دخل البرزخ.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره واحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه. وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك، الذى هو رسول الله، من روحه، فيصير حيا بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات. وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذى ألقى إليه، قال تعالى:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ (١)

وقال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣)

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكى، فمن أصابه نفخ الرسول الملكى، ونفخ الرسول البشرى حصلت له الحياتان، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى، قال تعالى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن

(١) سورة النحل: الآية ٢.
(٢) سورة غافر: الآية ١٥.
(٣) سورة الشورى: الآية ٥٢.

مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (١)

فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافرا ضالا فهديناه.

وجعلنا له نورا

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ (٢)

يتضمن أمورا: أحدها: أنه يمشي فى الناس بالنور وهم فى الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشى به فى الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها. وثانيها: أنه يمشى فيهم بنوره فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور. وثالثها: أنه يمشى بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقى أهل الشرك والنفاق فى ظلمات شركهم ونفاقهم.

الله يحول بين المرء وقلبه

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ (٣)

المشهور فى الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الايمان. ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين.

وفى الآية قول آخر أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدى عن قتاده، وكان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه وهل أضمر ذلك أو اضمر خلافه.

---

(١)، (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢. (٣) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

وعلى القول الأول ، فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته ، فيكون قوله :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (١)

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ (٣).

ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب وإن استجاب بالجوارح .

وفي الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به ، وهو الاستجابة ، وبين القدر والإيمان به ، فهي كقوله :

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤)

وقوله : ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (٥) والله أعلم .

فائدة جليلة

كتب عليكم القتال

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟

(١) سورة الأنعام : الآية ١١٠ .
(٢) سورة الصف : الآية ٥ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٠١ .
(٤) سورة التكوير: الآية ٢٨ ـ ٢٩ .
(٥) سورة المدثر: الآية ٥٥ ـ ٥٦ .

شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢)

فالآية الأولى فى الجهاد الذى هو كمال القوة الغضبية. والثانية فى النكاح الذى هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له فى معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة، وهذا المحبوب شر له فى معاشه ومعاده.

وكذلك يكره المرأة لوصف من أوصافها وله فى امساكها خير كثير لا يعرفه. ويحب المرأة لوصف من أوصافها وله فى امساكها شر كثير لا يعرفه. فالإنسان كما وصفه به خالقه «ظلوم جهول»، فلا ينبغى أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فانفع الأشياء له على الاطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضر الأشياء عليه على الاطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فإذا قام بطاعته وعبوديته مخلصا له فكل ما يجرى عليه مما يكرهه يكون خيرا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته فكل ما هو فيه من محبوب هو شر له. فمن صحت له معرفة ربه والفقه فى أسمائه وصفاته، علم يقينا أن المكروهات التى تصيبه والمحن التى تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التى لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٢) سورة النساء: الآية ١٩.

فعامة مصالح النفوس فى مكروهاتها، كما أن عامة مضارها وأسباب هلكتها فى محبوباتها. فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهدها بالسقى والاصلاح حتى أثمرت أشجارها، فأقبل عليها يفصل أوصالها، ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خليت على حالها لم تطب ثمرتها، فيطعمها من شجرة طيبة الثمرة، حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلمها ويقطع أغصانها الضعيفة التى تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك. ثم لايدعها ودواعى طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطشها وقتا ويسقيها وقتا، ولايترك الماء عليها دائما وان كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى تلك الزينة التى زينت بها من الأوراق فيلقى عنها كثيرا منها، لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها كما فى شجر العنب ونحوه. فهو يقطع أعضاءها بالحديد ويلقى عنها كثيرا من زينتها، وذلك عين مصلحتها. فلو أنها ذات تميز وادراك كالحيوان، لتوهمت أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وانما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته فى اخراج الدم الفاسد عنه، بضع جلده (١) وقطع عروقه وأذاقه الألم الشديد. وإن رأى شفاءه فى قطع عضو من أعضائه أبانه عنه (٢)، كل ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته فى أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه، لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه. وكذلك يمنعه كثيرا من شهواته حمية له ومصلحة لا بخلا عليه.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين، الذى هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم، إذا أنزل بهم ما يكرهون كان

(١) بضع جلده: شقه. (٢) أبانه عنه: قطعه.

خيرا لهم من الا ينـــزله بهم، نظرا منه لهم واحسانا إليهم ولطفا بهم، ولـو مكـنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علما وارادة وعـملا، لـكـنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبـوا أم كـرهـوا، فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته، فنازعوه تدبيره وقدحـوا فـى حكمته ولم ينـقـادوا لحكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائـهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا ولا لمصالحهم حصلوا، والله الموفق.

ومـتـى ظـفـر الـعبد بهذه المعرفة سكن فى الدنيا قبل الآخرة فى جنة لا يشـبـه نـعـيـمـهـا إلا نـعيم جـنـة الآخرة، فإنه لا يزال راضيا عن ربه، والـرضـا جـنـة الـدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يجرى عليها من المقادير التى هى عين اختيار الله له وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية، وهـذا هـو الـرضـا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا. وما ذاق طعم الإيمـان مـن لم يحـصـل له ذلك. وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى. فقضاء الرب سبحانه فى عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة، لا يخرج عـن ذلـك الـبـتـة كما قـال صـلـى الله عـلـيه وسلم فى الدعاء المشهور: «اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فـى حكـمك، عـدل فـى قـضـاؤك، أسـألك بكل اسم هو لك سميت به نـفسك، أو انزلته فى كتابك، أوعلمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى وجلاء حـزنـى، وذهاب همى وغمى. ما قالها أحد قط إلا أذهب الله همه وغمه وأبـدلـه مـكـانـه فـرجـا. قـالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: بلى! ينبغى لمن يسمعهن أن يتعلمهن» [1].

---

(١) للاستزادة، راجع مسند الإمام أحمد.

والمقصود قوله : «عدل في قضاؤك» ، وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده ، من عقوبة أوألم وسبب ذلك ، فهو الذى قضى بالسبب وقضى بالمسبب . وهو عدل فيَ هذا القضاء . وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن» . قال العلامة ابن القيم : فسألت شيخنا : هل يدخل في ذلك قضاء الذنب ؟ فقال : نعم بشرطه ، فأجمل في لفظه «بشرطه» ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك .

فائدة

الزهد فى الدنيا

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين :

النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها ، وما في ذلك من الغصص والنغص والانكاد ، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسف ، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم في حال الظفر بها وغم وحزن بعد فواتها ، فهذا أحد النظرين .

النظر الثاني: النظر في الآخرة واقبالها ومجيها ولابد ، ودوامها وبقائها ، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات والتفاوت الذى بينه وبين ما ههنا . فهى كما قال سبحانه :

﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (١)

(١) سورة الأعلى : الآية ١٧ .

فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة. فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل ايثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه. فكل أحد مطبوع على الا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل. فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الايمان وضعف العقل والبصيرة. فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها اما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، واما الا يصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادما للإيمان رأسا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل سيىء الاختيار لنفسه.

وهذا تقسيم حاضر ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة اما من فساد في الايمان، واما من فساد في العقل. وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم، وأطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدوها سجنا لا جنة. فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب ولوصلوا منها إلى كل مرغوب. فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على صحابه فآثروا بها ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب قال(١) في ظل شجرة، ثم راح وتركها». وقال: «ما الدنيا في الآخرة

---

(١) قال: من القيلولة، وهي نومة منتصف النهار. والحديث رواه ابن ماجة في كتاب الزهد وأبو داود وابن حنبل.

إلا كما يدخل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع »[1]. وقال خالقها سبحانه :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2]

فاخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها ، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها .

وقال تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [3]

وقال تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ

---

(١) روى بألفاظ مختلفة . راجع البخارى (الرقاق) ، ومسلم (الجنة) ، وابن ماجة والترمذى (الزهد) .

(٢) سورة يونس : الآية ٢٤ ــ ٢٥ .   (٣) سورة الكهف : الآية ٤٥ ــ ٤٦ .

اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (٣)

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه، فقال:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤)

وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الحديد: الآية ٢٠.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤ ــ ١٥.
(٣) سورة الرعد: الآية ٢٦.
(٤) سورة يونس: الآية ٧ ــ ٨.
(٥) سورة التوبة: الآية ٣٨.

وعلى قدر رغبة العبد فى الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة، ويكفى فى الزهد فى الدنيا قوله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ (١)

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (٤)

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (٥)

وقوله: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

وقوله: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٠٥ ـ ٢٠٧.
(٢) سورة يونس: الآية ٤٥.
(٣) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.
(٤) سورة النازعات: الآية ٤٢ ـ ٤٦.
(٥) سورة الروم: الآية ٥٥.
(٦) سورة المؤمنون: الآية ١١٢ ـ ١١٤.

﴿ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ (١)
والله المستعان وعليه التكلان.

قاعدة
أساس الخير

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك. وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده. وأجمعوا أن التوفيق الا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه. فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «إني لا أحمل هم الاجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الاجابة معه». وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته. فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به والخذلان في مواضعه اللائقة به، وهو العليم الحكيم، وما أتى من أتى إلا من قبل اضاعة الشكر واهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا

(١) سورة طه: الآية ١٠٢ ــ ١٠٤.

بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. وملاك ذلك الصبر فإنه من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد.

قسوة القلب وصفاؤه:

ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله. خلقت النار لإذابة القلوب القاسية. أبعد القلوب من الله القلب القاسى. إذا قسا القلب قحطت العين. قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة. كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهواته. القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها. القلوب آنية الله فى أرضه، فأحبها اليه أرقها وأصلبها وأصفاها. شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت فى معانى كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفرائد. إذا غذى القلب بالتذكر وسقى بالتفكر ونقى من الدغل(1)، رأى العجائب وألهم الحكمة. ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى. وأما من قتل قلبه فأحيى الهوى، فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه.

خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر.

إذا زهدت القلوب فى موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد.

الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا.

---

(1) أى الفساد.

من وطن قلبه عند ربه سكن واستراح ، ومن أرسله فى الناس اضطرب واشتد به القلق .

لا تدخل محبة الله فى قلب فيه حب الدنيا الا كما يدخل الجمل فى سم الأبرة .

إذا أحب الله عبداً اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته ، فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته .

القلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه فى التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرأة وجلاؤه بالذكر ، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن ، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والانابة والخدمة .

حكم متفرقة :

* إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلاً ولأيامك وأنفاسك أمداً ومن كل ما سواه ولا بد لك منه .

* من ترك الاختيار والتدبير فى طلب زيادة دنيا أو جاه أو فى خوف نقصان أو فى التخلص من عدو ، توكلا على الله وثقة بتدبيره له وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه وسلم الأمر اليه ورضى بما يقضيه له ، استراح من الهموم والغموم والأحزان . ومن أبى الا تدبيره لنفسه وقع فى النكد والنصب وسوء الحال والتعب ، فلا عيش يصفو ولا قلب يفرح ولا عمل يزكو ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم ، والله سبحانه سهل لخلقه السبيل اليه وحجبهم عنه بالتدبير ، فمن رضى بتدبير الله له وسكن إلى اختياره وسلم لحكمه أزال ذلك الحجاب ، فأفضى القلب إلى ربه وأطمأن اليه وسكن .

* المتوكل لا يسأل غير الله ولا يرد على الله ولا يدخر مع الله .

* من شغل بنفسه شغل عن غيره، ومن شغل بربه شغل عن نفسه.

* الاخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه ولا عدو فيفسده ولا يعجب به صاحبه فيبطله.

* الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام.

* الناس فى الدنيا معذبون على قدر هممهم بها.

* للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها، ثلاثة سافلة وثلاثة عالية، فالسافلة: دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له. فهذه مواطن الأرواح السافلة التى لا تزال تجول فيها. والثلاثة العالية: علم يتبين له، وعقل يرشده، واله يعبده. والقلوب جوالة فى هذه المواطن.

* اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فان اتباع الهوى يعمى عن الحق معرفة وقصداً، وطول الأمل ينسى الآخرة ويصد عن الاستعداد لها.

* لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه أو يداهن غيره.

* إذا أراد الله بعبد خيراً جعله معترفاً بذنبه ممسكاً عن ذنب غيره، جواداً بما عنده زاهداً فيما عند غيره محتملاً لأذى غيره، وان أراد به شراً عكس ذلك عليه.

* الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وارادة، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكراً وطاعة، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية. فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت فى أودية الوساوس والخطرات.

* من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها

وعبيدها وأذلته . ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له .

* إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فتى يصل إلى مقصده ؟ .

فائدة جليلة

العالم الذى لا يعمل بعلمه

كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلا بد أن يقول على الله غير الحق فى فتواه وحكمه ، فى خبره وألزامه ، لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتى على خلاف أغراض الناس ، ولا سيما أهل الرياسة . والذين يتبعون الشهوات فانهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق ، ولا سيما إذا قامت له (١) شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى ، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق . وان كان الحق ظاهراً لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال : لى مخرج بالتوبة . وفى هؤلاء وأشباههم قال تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى فيهم أيضاً :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ

---

(١) أى لكل من آثر الدنيا .   (٢) سورة مريم : الآية ٥٩ .

ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا سيغفر لنا ، وان عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك ، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق ، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه ؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون ، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه .

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا ، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة ، ويستعينوا بالصبر والصلاة ، ويتفكروا فى الدنيا وزوالها وخستها ، والآخرة وإقبالها ودوامها . وهؤلاء لابد أن يبتدعوا فى الدين مع الفجور فى العمل فيجتمع لهم الأمران ، فان اتباع الهوى يعمى عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة ، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ (٢)

فهذا مثل عالم السوء الذى يعمل بخلاف عمله .

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه ، وذلك من وجوه :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٦٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٥ ــ ١٧٦ .

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الايمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الايمان مفارقة من لا يعود اليه أبداً، فانه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقى معه منه شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: «فأتبعه الشيطان»، ولم يقل تبعه، فان في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظاً ومعنى.

ورابعها: انه غوى بعد الرشد. والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد. فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وان اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته وأنه أختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن اخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الاخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الاقامة به، قال مالك بن نويرة.

بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هى الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه اماماً له يقتدى به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذى هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفساً وأبخلها وأشدها كلباً ولهذا سمى كلباً.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب فى حالتى تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا.. هذا ان ترك فهو لهثان على الدنيا، وأن وعظ وزجر فهو كذلك. فاللهث لا يفارقه فى كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من اعياء أو عطش إلا الكلب فانه يلهث في حال الكلال [1] وحال الراحة، وحال الرى وحال العطش، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال: ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال كالكلب ان طردته لهث وان تركته على حاله لهث. وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه.

فائدة

العابد الجاهل والعالم الفاجر

فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة، وأما العابد الجاهل فآفته من اعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه

---

(١) الكلال: التعب.

نفسه . ولهذا قال سفيان بن عيينة (١) وغيره : أحذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه ، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور.

وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) ،

وقصته معروفة ، فانه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل ، فأوقعه الشيطان بجهله وكفره بجهله . فهذا امام كل عابد جاهل يكفر ولا يدرى ، وذاك امام كل عالم فاجر، يختار الدنيا على الآخرة .

وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته وتدبرها والعمل بها سبب شقائه وهلاكه ولا يجتمع هذان ، أعنى الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب الا فى قلب من لا يؤمن بالمعاد ولا يرجو لقاء رب العباد ، وإلا فلو رسخ قدمه فى الايمان بالمعاد لما رضى الدنيا ولا اطمأن اليها ولا أعرض عن آيات الله .

وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عمار الدنيا . وأقل الناس عدداً من هو على خلاف ذلك وهو من أشد الناس غربة بينهم لهم شأن وله شأن ، علمه غير علومهم وارادته غير ارادتهم وطريقه غير طريقهم ، فهو فى واد وهم فى واد ، قال تعالى :

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى ، من الموالى ، ولد بالكوفة سنة (١٠٧ هـ= ٧٢٥ م) وسكن مكة وحدث فى حرمها . توفى سنة (١٩٨ هـ= ٨١٤ م) . وله « الجامع» فى الحديث ، وكتاب فى التفسير.

(٢) سورة الحشر: الآية ١٦ ــ ١٧ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (١).

ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (٢).

فهؤلاء ايمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة اليها ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الايمان بالمعاد وتلك مواريث عدم الايمان به والغفلة عنه.

فائدة عظيمة

أفضل ما تكتسبه النفوس

أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب ونال به العبد الرفعة فى الدنيا والآخرة هو العلم والايمان، ولهذا قرن بينهما سبحانه فى قوله:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾ (٣)،

وقوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ (٤).

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون فى حقيقة مسمى العلم والايمان اللذين بهما السعادة والرفعة، وفى حقيقتهما. حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم

(١) سورة يونس: الآية ٧ ـ ٨.
(٢) سورة يونس: الآية ٩.
(٣) سورة الروم: الآية ٥٦.
(٤) سورة المجادلة: الآية ١١.

والايمـان هو هذا الذى به تنال السعادة، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهـم ايمان ينجى ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والايمـان اللـذيـن جـاء بهما الـرسول صلـــى الله عـليه وسلم ودعا اليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوه على مناهجهم وآثارهم.

علوم ضارة:

فكل طائفة اعتقدت أن العلم ما معها وفرحت به:

﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (١)،

وأكثر مـا عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام كما قال حماد بـن زيـد (٢): قـلـت لأيـوب (٣) العـلـم الـيـوم أكثر أو فيما تقدم فقال: الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر!.

فـفـرق هـذا الراسخ بين العلم والكلام. فالكتب كثيرة جداً والكلام والجدال والمـقـدرات الـذهـنـية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله سبحانه، قال تعالى:

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (٤).

وقال: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ (٥).

وقال فى القرآن: (أنزله بعلمه) أى وفيه علمه.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٣.

(٢) هو حماد بن زيد بن درهم الأزدى الجهضمى، أبو إسماعيل، البصرى الأذرق، مولى آل جرير بن حازم، شيخ العراق فى عصره، ومن حفاظ الحديث، يحفظ أربعة آلاف حديث، وهو من أقران ابن عيينة، روى عنه ابن المبارك. وقد توفى سنة (١٧٩ هـ = ٧٩٥ م).

(٣) هو أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيانى، أبو بكر البصرى، رأى أنس بن مالك وروى عن نافع بن عاصم وعطاء وغيرهما. كان سيد الفقهاء فى البصرة، ومن أشد الناس اتباعاً للسنة، مات سنة ١٣١ هـ.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٦١. (٥) سورة البقرة: الآية ١٢٠.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علماً، ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان وملأوا بها الصحف مداداً، والقلوب سواداً، حتى صرح كثير من الناس منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم، وأن أدلتها لفظية لاتفيد يقيناً ولا علماً. وصرخ الشيطان بهذه الكلمة فيهم وأذن بها بين أظهرهم حتى أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوب من العلم والايمان كانسلاخ الحية من قشرها، والثوب عن لابسه.

قال الامام العلامة شمس الدين ابن القيم: ولقد أخبرني بعض أصحابنا عن بعض أتباع تلاميذ هؤلاء أنه رآه يشتغل في بعض كتبهم ولم يحفظ القرآن، فقال له: لو حفظت القرآن أولاً كان أولى، فقال: وهل في القرآن علم! قال ابن القيم: وقال لي بعض أئمة هؤلاء: إنما نسمع الحديث لأجل البركة لالنستفيد منه العلم لأن غيرنا قد كفانا هذه المؤنة فعمدتنا على مافهموه وقرروه، ولا شك أن من كان هذا مبلغه من العلم فهو كما قال القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبطحاء أبعد منزل

قال: وقال لي شيخنا مرة في وصف هؤلاء: أنهم طافوا على أرباب المذاهب ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله، ماترى فيه من التناقض والاختلاف ومصادمة بعضه لبعض، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (1)،

وهذا يدل على أن ما كان من عنده سبحانه لا يختلف، وان ما اختلف

(1) سورة النساء: الآية ٨٢.

وتناقض فليس من عنده، وكيف تكون الآراء والخيالات وسوانح الأفكار ديناً يدان به ويحكم به على الله ورسوله، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وقد كان علم الصحابة الذى يتذاكرون فيه غير علوم هؤلاء المختلفين الخراصين كما حكم الحاكم فى ترجمة أبى عبد الله البخارى، قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا إنما يتذاكرون كتاب ربهم وسنة نبيهم، ليس بينهم رأى ولا قياس. ولقد أحسن القائل:

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة ... بين الرسول وبين رأى فقيه
كلا ولا جحد الصفات ونفيها ... حذراً من التمثيل والتشبيه

فصل

الايمان والاختلاف فيه

وأما الايمان فأكثر الناس، أو كلهم، يدعونه «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين»، وأكثر المؤمنين إنما عندهم ايمان مجمل، وأما الايمان المفصل بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة وعلماً وإقراراً ومحبة ومعرفة بضده وكراهيته، فهذا ايمان خواص الأمة وخاصة الرسول، وهو ايمان الصديق وحزبه.

وكثير من الناس حظهم من الايمان الاقرار بوجود الصانع وأنه وحده هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما، وهذا لم يكن ينكره عباد الأصنام من قريش ونحوهم.

وآخرون الايمان عندهم هو التكلم بالشهادتين، سواء كان معه عمل أو لم يكن وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه.

وآخرون عندهم الايمان مجرد تصديق بأن الله سبحانه خالق السموات والأرض وأن محمداً عبده ورسوله وإن لم يقر بلسانه ولم يعمل شيئاً، بل ولو سب الله ورسوله وأتى بكل عظيمة، وهو يعتقد وحدانية الله ونبوة رسوله فهو مؤمن.

وآخرون عندهم الايمان هو جحد صفات الرب تعالى من علوه على عرشه وتكلمه بكلماته وكتبه وسمعه وبصره ومشيئته وقدرته وارادته وحبه وبغضه، وغير ذلك مما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله. فالايمان عندهم انكار حقائق ذلك كله وجحده والوقوف مع ما تقتضيه آراء المتهوكين وأفكار الخرصين (١) الذين يرد بعضهم على بعض وينقض بعضهم قول بعض، الذين هم كما قال عمر بن الخطاب والامام أحمد: مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مفارقة الكتاب.

وآخرون عندهم الايمان عبادة الله بحكم أذواقهم ومواجيدهم (٢) وما تهواه نفوسهم من غير تقييد بما جاء به الرسول.

وآخرون الايمان عندهم ما وجدوا عليه آباءهم وأسلافهم بحكم الاتفاق كائناً ما كان، بل ايمانهم مبني على مقدمتين:

إحداهما: أن هذا قول أسلافنا وآبائنا.

والثانية: أن ما قالوه فهو الحق.

وآخرون عندهم الايمان مكارم الأخلاق وحسن المعاملة وطلاقة الوجه واحسان الظن بكل أحد وتخلية الناس وغفلاتهم.

وآخرون عندهم الإيمان التجرد من الدنيا وعلائقها وتفريغ القلب منها والزهد فيها. فإذا رأوا رجلاً هكذا جعلوه من سادات أهل الإيمان، وان

---

(١) المتهوكون: جمع متهوك، وهو المتحير. والخرص: المكذب أو المتشكك.

(٢) ربما كان المقصود بمواجيدهم ما يحبونه.

كان منسلخاً من الإيمان علماً وعملاً. وأعلى من هؤلاء من جعل الإيمان هو مجرد العلم وان لم يقارنه عمل.

وكل هؤلاء لم يعرفوا حقيقة الإيمان ولا قاموا به ولا قام بهم، وهم أنواع: منهم من جعل الإيمان ما يضاد الإيمان، ومنهم من جعل الإيمان ما لا يعتبر فى الإيمان، ومنهم من جعله ما هو شرط فيه ولا يكفى فى حصوله، ومنهم من اشترط فى ثبوته ما يناقضه ويضاده، ومنهم من اشترط فيه ما ليس منه بوجه.

والإيمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة اليه بحسب الإمكان. وكماله فى الحب فى الله والبغض فى الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده الهه ومعبوده. والطريق اليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله، وبالله التوفيق.

من اشتغل بالله عن نفسه كفاه الله مؤونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل بنفسه عن الله وكله الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله وكله الله اليهم.

فائدة جليلة

أصول السعادة

إنما يجد المشقة فى ترك المألوفات والعوائد[1] من تركها لغير الله. أما من تركها صادقاً مخلصاً من قلبه لله فانه لا يجد فى تركها مشقة إلا

(١) العوائد: جمع عادة.

فى أول وهلة ليمتحن أصادق هو فى تركها أم كاذب، فان صبر على تلك المشقة قليلاً استحالت لذة. قال ابن سيرين: سمعت شريحاً يحلف بالله ما ترك عبد لله شيئاً فوجد فقده. وقولهم: من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه حق، والعوض أنواع مختلفة، واجل ما يعوض به الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى.

أغبى الناس من ضل فى آخر سفره وقد قارب المنزل:

العقول المؤيدة بالتوفيق ترى أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الموافق للعقل والحكمة. والعقول المضروبة بالخذلان ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع.

أقرب الوسائل إلى الله ملازمة السنة والوقوف معها فى الظاهر والباطن ودوام الافتقار إلى الله وارادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

الأصول التى تنبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية. ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة فى الله وفيما عنده ومن الرهبة منه ومما عنده.

قاعدة جلية

أهل الهدى وأهل الضلال

قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [1]،

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٥.

وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ (١) ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ ﴾ (٢) الآية.

والله تعالى قد بين فى كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التى وفق بها هؤلاء والأسباب التى خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين فى كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان حتى شاهدتها البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فأنهم نشأوا فى سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغى إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضاً لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس فى التوحيد

---

(١) انظر ما قاله المؤلف فى تفسير المشاقة، ص ١١٤.

(٢) سورة النساء: الآيه ١١٥.

والإيمان والإسلام وأبغض الناس فى ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

تفضيل:

وأما من جاء بعد الصحابة، فنهم من نشأ فى الإسلام غير عالم تفضيل ضده فالتبس عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر ابن الخطاب: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية، وهذا من كمال علم عمر رضى الله عنه، فانه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فانه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل.

فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أو شك أن يظن فى بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين، كما وقع فى هذه الآية من أمور كثيرة فى باب الاعتقاد والعلم والعمل هى من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم فى سبيل المؤمنين ودعا إليه وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفر من خالفها.

والناس فى هذا الموضع أربع فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفضيل علماً وعملاً، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام. وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وان لم يتصوره على التفضيل، بل إذا سمع شيئاً مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى، فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل: رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: ان الذى تشتهى نفسه المعاصى ويتركها لله عز وجل من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرها وحذر منها ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة فى الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها، أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه. فإنه كلما مرت بقلبه وتصورت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسروراً به، فيقوى إيمانه به. كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصى كلما مرت به فرغب عنها إلى ضدها ازداد محبة لضدها ورغبة فيه وطلباً له وحرصاً عليه، فما ابتلى الله سبحانه عبده المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصى وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها إلى محبة ما هو أفضل منها وخير له وأنفع وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه فتورثه تلك المجاهدة الوصول إلى المحبوب الأعلى. فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها، صرف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النوع العالى الدائم، فكان طلبه له أشد وحرصه عليه أتم، بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها وإن كانت طالبة للأعلى لكن بين الطلبين فرق عظيم. ألا ترى أن من

مشـى إلى محبوبه على الجمر والشوك أعظم ممن مشى إليه راكباً على النجائب(١) فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره، فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات، أما حجاباً له عنه، أو حاجباً له يوصله إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وان تفصلت له في بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عياناً. وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكاً لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها. وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه والهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه، والله أعلم.

أرباب الحوائج على باب الملك يسألون قضاء حوائجهم، وأولياؤه المحبون له الذين هو همهم ومرادهم جلساؤه وخواصه، فإذا أراد قضاء حاجة واحد من أولئك أذن لبعض جلسائه وخاصته أن يشفع فيه رحمة له وكرامة للشافع، وسائر الناس مطرودون عن الباب مضروبون بسياط البعد.

---

(١) نجائب الإبل: خيارها.

فصل

عشرة لا ينتفع بها

عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا اخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه فى الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطل من طاعته وخدمته، ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير فى قبضته ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأعظم هذه الاضاعات اضاعتان هما أصل كل إضاعة: إضاعة القلب وإضاعة الوقت، فاضاعة القلب من ايثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل، فاجتمع الفساد كله فى اتباع الهوى وطول الأمل، والصلاح كله فى اتباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان.

العجيب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والاعراض وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته.

فصل

حق العبودية

لله سبحانه على عبده أمر أمره به، وقضاء يقضيه عليه، ونعمة ينعم بها عليه فلا ينفك من هذه الثلاثة. والقضاء نوعان: إما مصائب وإما

معايب ، وله عليه عبودية فى هذه المراتب كلها ، فأحب الخلق إليه من عرف عبوديته فى هذه المراتب ووفاها حقها ، فهذا أقرب الخلق إليه . وأبعدهم منه من جهل عبوديته في هذه المراتب فعطلها علماً وعملاً . فعبوديته فى الأمر امتثاله إخلاصاً واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وفى النهى اجتنابه خوفاً منه وإجلالاً ومحبة . وعبوديته فى قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلى منه ، ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا ، وهذا إنما يتأتى منه إذا تمكن حبه من قلبه وعلم حسن اختياره له وبره به ولطفه به وإحسانه إليه بالمصيبة وإن كره المصيبة .

وعبوديته فى قضاء المعايب المبادرة إلى التوبة منها والتنصل ، والوقوف فى مقام الاعتذار والانكسار، عالماً بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، ولا يقيه شرها سواه ، وأنها ان استمرت أبعدته من قربه وطردته من بابه ، فيراها من الضر الذى لا يكشفه غيره ، حتى أنه ليراها أعظم من ضر البدن .

فهو عائذ برضاه من سخطه ، وبعفوه من عقوبته ، وبه منه مستجير، وملتجىء منه إليه ، يعلم أنه إذا تخلى عنه وخلى بينه وبين نفسه فعنده أمثالها وشر منها ، وأنه لا سبيل له إلى الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانته ، وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد ، فهو أعجز وأضعف وأقل من أن يوفق نفسه أو يأتى بمرضاة سيده بدون إذنه ومشيئته واعانته ، فهو ملتجىء إليه متضرع ذليل مسكين ، ملق نفسه بين يديه طريح ببابه مستخذ له ، أذل شيء وأكسره له وأفقره وأحوجه إليه وأرغبه فيه وأحبه له ، بدنه متصرف فى أشغاله ، وقلبه ساجد بين يديه ، يعلم يقيناً انه لا خير فيه ولا له ولا به ولا منه ، وأن الخير كله لله وفى يديه وبه ومنه ، فهو ولى نعمته ، ومبتدئه بها من غير استحقاق ومجريها عليه مع تمقته إليه باعراضه وغفلته ومعصيته ، فحظه سبحانه الحمد والشكر والثناء ، وحظ

العبد الذم والنقص والعيب، قد استأثر بالمحامد والمدح والثناء، وولى العبد الملامة والنقائص والعيوب، فالحمد كله له والخير كله في يديه، والفضل كله له والثناء له والمنة كلها له، فمنه الإحسان ومن العبد الإساءة، ومنه التودد إلى العبد بنعمه ومن العبد التبغض إليه بمعاصيه، ومنه النصح لعبده ومن العبد الغش له في معاملته.

وأما عبودية النعم فمعرفتها والاعتراف بها أولاً: ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتها واضافتها إلى سواه. وان كان سبباً من الأسباب فهو مسببه ومقيمه، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار ثم الثناء بها عليه ومحبته عليها وشكره بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت اليه من سيده من غير ثمن بذله فيها ولا وسيلة منه توسل بها إليه ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد فلا تزيده النعم إلا انكساراً وذلاً وتواضعاً ومحبة للمنعم. وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعاً وذلاً، وكلما أحدث له قبضاً أحدث له رضا، وكلما أحدث ذنباً أحدث له توبة وانكسارا واعتذاراً. فهذا هو العبد الكيس، والعاجز بمعزل عن ذلك، وبالله التوفيق.

فصل

حلاوة التوكل على الله

من ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيره لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد

منه لنفسه، وأرحم به منه بنفسه، وأبر به منه بنفسه. وعلم من ذلك أنه لا يستطيع أن يتقدم بين يدى تدبيره خطوة واحدة ولا يتأخر عن تدبيره له خطوة واحدة، فلا متقدم له بين يدى قضائه وقدره ولا متأخر، فألقى نفسه بين يديه وسلم الأمر كله إليه، وانطرح بين يديه انطراح عبد مملوك ضعيف بين يدى ملك عزيز قاهر، له التصرف فى عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجه من الوجوه، فاستراح حينئذ من الهموم والأنكاد والحسرات، وحمل كله وحوائجه ومصالحه من لا يبالى بحملها ولا يثقله ولا يكترث بها، فتولاها دونه وأراه لطفه وبره ورحمته وإحسانه فيها من غير تعب من العبد ولا نصب ولا اهتمام منه، لأنه قد صرف اهتمامه كله إليه وجعله وحده همه فصرف عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه وفرغ قلبه منها، فما أطيب عيشه وما أنعم قلبه وأعظم سروره وفرحه. وان أبى إلا تدبيره لنفسه واختياره لها واهتمامه بحظه، دون حق ربه، خلاه وما اختاره وولاه ما تولى، فحضره الهم والغم والحزن والنكد والخوف والتعب وكسف البال وسوء الحال، فلا قلب يصفو ولا عمل يزكو ولا أمل يحصل ولا راحة يفوز بها ولا لذة يتهنى بها، بل قد حيل بينه وبين مسرته وفرحه وقرة عينه، فهو يكدح فى الدنيا كدح الوحش ولا يظفر منها بأمل ولا يتزود منها لمعاد، والله سبحانه قد أمر العبد بأمر وضمن له ضماناً، فإن قام بأمره بالنصح والصدق والاخلاص والاجتهاد، قام الله سبحانه له بما ضمنه له من الرزق والكفاية والنصر وقضاء الحوائج، فإنه سبحانه ضمن الرزق لمن عبده، والنصر لمن توكل عليه واستنصر به، والكفاية لمن كان هو همه ومراده والمغفرة لمن استغفره وقضاء الحوائج لمن صدقه فى طلبها ووثق به وقوى رجاؤه وطمعه فى فضله وجوده. فالفطن الكيس إنما يهتم بأمره وإقامته وتوفيقه لا بضمانه، فانه الوفى الصادق، ومن أوفى بعهده من الله. فمن علامات السعادة صرف اهتمامه إلى أمر الله دون ضمانه.

ومن علامات الحرمان فراغ قلبه من الاهتمام بأمره وحبه وخشيته والاهتمام بضمانه ، والله المستعان .

قال بشر بن الحارث[1] : أهل الآخرة ثلاثة : عابد وزاهد وصديق ، فالعابد يعبد الله مع العلائق ، والزاهد يعبده على ترك العلائق ، والصديق يعبده على الرضا والموافقة ، إن أراه أخذ الدنيا أخذها وإن أراه تركها تركها .

المشاقة والمحادة:

إذا كان الله ورسوله في جانب فاحذر أن تكون في الجانب الآخر، فإن ذلك يفضي إلى المشاقة والمحادة ، وهذا أصلها ومنه اشتقاقها ، فإن المشاقة أن يكون في شق ومن يخالفه في شق ، والمحادة أن يكون في حد وهو في حد ، ولا تستسهل هذا فإن مبادئه تجر إلى غايته ، وقليله يدعو إلى كثيره ، وكن في الجانب الذى فيه الله ورسوله وإن كان الناس كلهم في الجانب الآخر، فإن لذلك عواقب هى أحمد العواقب وأفضلها ، وليس للعبد أنفع من ذلك فى دنياه قبل آخرته ، وأكثر الخلق إنما يكونون فى الجانب الآخر، ولا سيا إذا قويت الرغبة والرهبة ، فهناك لا تكاد تجد أحداً فى الجانب الذى فيه الله ورسوله ، بل يعده الناس ناقص العقل سيىء الاختيار لنفسه ، وربما نسبوه إلى الجنون ، وذلك من مواريث أعداء الرسل فإنهم نسبوه إلى الجنون لما كانوا فى شق وجانب والناس فى شق وجانب آخر، ولكن من وطن نفسه على ذلك فإنه يحتاج إلى علم راسخ بما جاء به الرسول يكون يقيناً له لا ريب عنده فيه ، وإلى صبر تام على معاداة من عاداه ولومة من لامه ، ولا يتم له

---

(١) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان المعروف ببشر الحافى. كنيته أبونصر، وأصله من مرو. سكن بغداد ومات بها. كان عالماً ورعاً. قال يحيى بن أكثم: «قال لى المأمون: لم يبق فى هذه الكورة أحد يستحى منه، غير هذا الشيخ، بشر بن الحارث». وقد توفى سنة ٢٢٧ هـ.

ذلك إلا برغبة قوية فى الله والدار الآخرة، بحيث تكون الآخرة أحب إليه من الدنيا وآثر عنده منها، ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وليس شىء أصعب على الإنسان من ذلك فى مبادىء الأمر، فإن نفسه وهواه وطبعه وشيطانه واخوانه ومعاشريه من ذلك الجانب يدعونه إلى العاجل، فإذا خالفهم تصدوا لحربه، فان صبر وثبت جاءه العون من الله وصار ذلك الصعب سهلاً، وذلك الألم لذة، فإن الرب شكور، فلابد أن يذيقه لذة تحيزه إلى الله وإلى رسوله ويريه كرامة ذلك فيشتد به سروره وغبطته ويبتهج به قلبه ويظفر بقوته وفرحه وسروره ويبقى من كان محارباً له ــ على ذلك ــ بين هائب له ومسالم له ومساعد وتارك، ويقوى جنده ويضعف جند العدو.

ولا تستصعب مخالفة الناس والتحيز إلى الله ورسوله ولو كنت وحدك فإن الله معك وأنت بعينه وكلاءته وحفظه لك، وإنما امتحن يقينك وصبرك. وأعظم الأعوان لك على هذا بعد عون الله التجرد من الطمع والفزع، فمتى تجردت منها هان عليك التحيز إلى الله ورسوله، وكنت دائماً فى الجانب الذى فيه الله ورسوله، ومتى قام بك الطمع والفزع فلا تطمع فى هذا الأمر ولا تحدث نفسك به. فإن قلت: فبأى شىء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع؟ قلت: بالتوحيد والتوكل والثقة بالله وعلمك بأنه لا يأتى بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، وأن الأمر كله لله ليس لأحد مع الله شىء.

نصيحة

كيف تصلح حالك

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته فى دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء بل من أقرب الطرق وأسهلها. وذلك أنك فى وقت بين

وقتين وهو فى الحقيقة عمرك ، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل ، فالذى مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق ، إنما هو عمل قلب . وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب ، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته ، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك ، فما مضى تصلحه بالتوبة ، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية ، وليس للجوارح فى هذين نصب ولا تعب ، ولكن الشأن فى عمرك وهو وقتك الذى بين الوقتين ، فان أضعته أضعت سعادتك ونجاتك ، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم . وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده ، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها . وفى هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت ، فهى والله أيامك الخالية التى تجمع فيها الزاد لمعادك ، إما إلى الجنة واما إلى النار، فإن اتخذت إليه سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر فى هذه المدة اليسيرة التى لا نسبة لها إلى الأبد ، وان آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذى مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله .

فصل

علامة صحة الارادة

علامة صحة الارادة أن يكون هم المريد رضا ربه واستعدادا للقائه وحزنه على وقت مر فى غير مرضاته وأسفه على قربه والأنس به . وجماع ذلك أن يصبح ويمسى وليس له هم غيره .

فصل

الزهد فى الدنيا

إذا استغنى الناس بالدنيا فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه تنل بذلك غاية العز والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحداً سمع بالجنة والنار تأتى عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان، فقال له رجل: انى أكثر البكاء، فقال: إنك ان تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكى وأنت مدل(١) بعملك، وان المدل لا يصعد عمله فوق رأسه، فقال: أوصنى، فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن فى الدنيا كالنحلة إن أكلت أكلت طيباً وإن أطعمت أطعمت طيباً وإن سقطت على شىء لم تكسره ولم تخدشه.

فصل

أقسام الزهد

الزهد أقسام: زهد فى الحرام وهو فرض عين. وزهد فى الشبهات وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت التحقت بالواجب، وان ضعفت كان مستحباً. وزهد فى الفضول. وزهد فيما لا يعنى من الكلام والنظر والسؤال واللقاء وغيره. وزهد فى الناس. وزهد فى النفس بحيث تهون عليه نفسه فى الله. وزهد جامع لذلك كله وهو الزهد فيما سوى الله، وفى كل ما شغلك عنه.

---

(١) أى منبسط.

وأفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد فى الحظوظ. والفرق بينه وبين الورع أن الزهد ترك مالاينفع فى الآخرة، والورع ترك ما يخشى ضرره فى الآخرة. والقلب المعلق بالشهوات لايصح له زهد ولا ورع.

قال يحيى بن معاذ: عجيب من ثلاث: رجل يرائى بعمله مخلوقاً مثله ويترك أن يعمله لله، ورجل يبخل بماله وربه يستقرضه منه فلا يقرضه منه شيئاً، ورجل يرغب فى صحبة المخلوقين ومودتهم، والله يدعوه إلى صحبته ومودته.

فائدة جليلة

مخالفة الأمر أعظم من عمل المنهى عنه

قال سهل بن عبد الله(١): ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهى، لأن آدم نهى عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه، وإبليس أمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه.

قلت: هذه مسألة عظيمة لها شأن وهى أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهى، وذلك من وجوه عديدة:

أحدها: ما ذكره سهل من شأن آدم وعدو الله إبليس.

الثانى: ان ذنب ارتكاب النهى مصدره فى الغالب الشهوة والحاجة، وذنب ترك الأمر مصدره فى الغالب الكبر والعزة، ولا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر، ويدخلها من مات على التوحيد وان زنى وسرق.

(١) يقصد ــ على الغالب ــ سهل بن عبد الله بن يونس التسترى، وهو أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الرياضيات، والأخلاص وعيوب الأفعال. توفى سنة ٢٨٣ هـ. (طبقات الصوفية)

الثالث: ان فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المنهى، كما دل على ذلك النصوص كقوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها»(١) وقوله: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ذكر الله»، وقوله: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»(٢)، وغير ذلك من النصوص.

وترك المناهى عمل فانه كف النفس عن الفعل، ولهذا علق سبحانه المحبة بفعل الأوامر كقوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ (٣)،

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤)،

وقوله: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٥)،

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (٦).

وأما في جانب المناهى فأكثر ما جاء النفى للمحبة كقوله:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (٧)،

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٨)،

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٩)،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان.

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الأدب، الباب ٥٣. ورواه الترمذي: الدعوات/٦. والنسائي: الإيمان/١.

(٣) سورة الصف: الآية ٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٥) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٦) سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

(٧) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

(٨) سورة الحديد: الآية ٢٣.

(٩) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

وقوله: ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ (١) ،
وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٢) ونظائره.

وأخبر في موضع آخر أنه يكرهها ويسخطها، كقوله:

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٣) ،

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ (٤)

إذا عرف هذا ففعل ما يحبه سبحانه مقصود بالذات. ولهذا يقدر ما يكرهه ويسخطه لافضائه إلى ما يحب، كما قدر المعاصي والكفر والفسوق لما ترتب على تقديرها مما يحبه من لوازمها من الجهاد واتخاذ الشهداء. وحصول التوبة من العبد والتضرع إليه والاستكانة وإظهار عدله وعفوه وانتقامه وعزه. وحصول الموالاة والمعاداة لأجله، وغير ذلك من الآثار التي وجودها بسبب تقديره ما يكره أحب إليه من ارتفاعها بارتفاع أسبابها، وهو سبحانه لا يقدر ما يحب لافضائه إلى حصول ما يكرهه ويسخطه كما يقدر ما يكرهه لافضائه إلى ما يحبه، فعلم أن ما يحبه أحب إليه مما يكرهه.

يوضحه الوجه الرابع: أن فعل المأمور مقصود لذاته وترك المنهى مقصود لتكميل فعل المأمور، فهو منهى عنه لأجل كونه يخل بفعل المأمور أو يضعفه وينقصه، كما نبه سبحانه على ذلك في النهي عن الخمر والميسر بكونهما يصدان عن ذكر الله وعن الصلاة. فالمنهيات قواطع وموانع صادة عن فعل المأمورات أو عن كمالها، فالنهي عنها من باب المقصود لغيره، والأمر بالواجبات من باب المقصود لنفسه.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٤٨.
(٢) سورة النساء: الآية ٣٦.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٨.
(٤) سورة محمد: ٢٨.

يوضحه الوجه الخامس: ان فعل المأمورات من باب حفظ الإيمان وبقائها وترك المنهيات من باب الحمية عما يشوش قوة الإيمان ويخرجها عن الاعتدال، وحفظ القوة مقدم على الحمية، فان القوة كلما قويت دفعت المواد الفاسدة وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة، فالحمية مردة لغيره وهو حفظ القوة وزيادتها وبقاؤها، ولهذا كلما قويت قوة الإيمان دفعت المواد الرديئة ومنعت من غلبتها وكثرتها بحسب القوة وضعفها، وإذا ضعفت غلبت المواد الفاسدة، فتأمل هذا الوجه.

الوجه السادس: أن فعل المأمورات حياة القلب وغذاؤه وزينته وسروره وقرة عينه ولذته ونعيمه، وترك المنهيات بدون ذلك لا يحصل له شيئاً من ذلك، فانه لو ترك جميع المنهيات ولم يأت بالايمان والأعمال المأمور بها لم ينفعه ذلك الترك شيئاً وكان خالداً مخلداً فى النار.

وهذا يتبين بالوجه السابع: أن من فعل المأمورات والمنهيات فهو إما ناج مطلقاً إن غلبت حسناته سيئاته، وإما ناج بعد أن يؤخذ منه الحق ويعاقب على سيئاته فمآله إلى النجاة وذلك بفعل المأمور.

ومن ترك المأمورات والمنهيات فهو هالك غير ناج ولا ينجو إلا بفعل المأمور وهو التوحيد.

فإن قيل: فهو إنما هلك بارتكاب المحظور وهو الشرك، قيل: يكفى فى الهلاك ترك نفس التوحيد المأمور به وإن لم يأت بضد وجودى من الشرك، بل متى خلا قلبه من التوحيد رأساً فلم يوحد الله فهو هالك وإن لم يعبد معه غيره، فإذا انضاف إليه عبادة غيره عذب على ترك التوحيد المأمور به وفعل الشرك المنهى عنه.

يوضحه الوجه الثامن: أن المدعو إلى الإيمان إذا قال: لا أصدق ولا أكذب ولا أحب ولا أبغض ولا أعبده ولا أعبد غيره، كان كافراً بمجرد الترك والإعراض، بخلاف ما إذا قال: أنا أصدق الرسول وأحبه وأؤمن

به وأفعل ما أمرني، ولكن شهوتي وارادتي وطبعي حاكمة على لا تدعني أترك ما نهاني عنه وأنا أعلم أنه قد نهاني وكره لي فعل المنهي ولكن لا صبر لي عنه، فهذا لا يعد كافراً بذلك، ولا حكمه حكم الأول، فإن هذا مطيع من وجه، وتارك المأمور جملة لا يعد مطيعاً بوجه.

يوضحه الوجه التاسع: أن الطاعة والمعصية إنما تتعلق بالأمر أصلاً وبالنهي تبعاً، فالمطيع ممتثل المأمور، والعاصي تارك المأمور، قال تعالى:

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ (١)،

وقال موسى لأخيه: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ (٢)،

وقال عمرو بن العاص عند موته: أنا الذي أمرتني فعصيت، ولكن لا إله إلا أنت. وقال الشاعر:

أمرتك أمراً جازماً فعصيتني

والمقصود من ارسال الرسل طاعة المرسل ولا تحصل إلا بامتثال أوامره، واجتناب المناهي من تمام امتثال الأوامر ولوازمه. ولهذا لو اجتنب المناهي ولم يفعل ما أمر به لم يكن مطيعاً وكان عاصياً، بخلاف ما لو أتى بالمأمورات وارتكب المناهي. فانه وان عد عاصياً مذنباً فانه مطيع بامتثال الأمر عاص بارتكاب النهي بخلاف تارك الأمر فانه لا يعد مطيعاً باجتناب المنهيات خاصة.

الوجه العاشر: أن امتثال الأمر عبودية وتقرب وخدمة، وتلك العبادة التي خلق لأجلها الخلق كما قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣)،

---

(١) سورة التحريم: الآية ٦. (٢) سورة طه: الآية ٩٣.

(٣) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

فأخبر سبحانه أنه إنما خلقهم للعبادة، وكذلك إنما أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ليعبدوه. فالعبادة هي الغاية التي خلقوا لها ولم يخلقوا لمجرد الترك فانه أمر عدمي لا كمال فيه من حيث هو عدم، بخلاف امتثال المأمور فانه أمر وجودي مطلوب الحصول.

وهذا يتبين من الوجه الحادي عشر: وهو أن المطلوب بالنهي عدم الفعل وهو أمر عدمي، والمطلوب بالأمر ايجاد فعل وهو أمر وجودي، فتعلق الأمر الايجاد، ومتعلق النهي الاعدام أو العدم وهو أمر لا كمال فيه إلا إذا تضمن أمراً وجودياً، فان العدم من حيث هو عدم لا كمال فيه ولا مصلحة إلا إذا تضمن أمراً وجودياً مطلقاً، وذلك الأمر الوجودي مطلوب مأمور به فعادت حقيقة النهي إلى الأمر، وأن المطلوب به ما في ضمن النهي من الأمر الوجودي المطلوب به.

وهذا يتضح بالوجه الثاني عشر: وهو أن الناس اختلفوا في المطلوب بالنهي على أقوال، أحدها: أن المطلوب به كف النفس عن الفعل وحبسها عنه وهو أمر وجودي. قالوا: لأن التكليف إنما يتعلق بالمقدور، والعدم المحض غير مقدور. وهذا قول الجمهور.

وقال أبو هاشم وغيره: بل المطلوب عدم الفعل، ولهذا يحصل المقصود من بقائه على العدم وان لم يخطر بباله الفعل، فضلاً أن يقصد الكف عنه. ولو كان المطلوب الكف لكان عاصياً إذا لم يأت به، ولأن الناس يمدحون بعدم فعل القبيح من لم يخطر بباله فعله والكف عنه. وهذا أحد قولي القاضي أبي بكر ولأجله التزم أن عدم الفعل مقدور للعبد وداخل تحت الكسب، قال: والمقصود بالنهي الإبقاء على العدم الأصلي وهو مقدور. وقالت طائفة: المطلوب بالنهي فعل الضد فانه هو المقدور وهو المقصود للناهي، فانه إنما نهاه عن الفاحشة طلباً للعفة وهي المأمور بها، ونهاه عن الظلم طلباً للعدل المأمور به. وعن

الكذب طلباً للصدق المأمور به وهكذا جميع المنهيات. فعند هؤلاء أن حقيقة النهي الطلب لضد المنهى عنه، فعاد الأمر إلى أن الطلب إنما تعلق بفعل المأمور

والتحقيق أن المطلوب نوعان: مطلوب لنفسه وهو المأمور به، ومطلوب اعدامه لمضادته المأمور به وهو المنهى عنه، لما فيه من المفسدة المضادة للمأمور به. فإذا لم يخطر ببال المكلف ولا دعته نفسه إليه بل استمر على العدم الأصلى لم يثب على تركه، وإن خطر بباله وكف نفسه عنه الله وتركه اختياراً أثيب على كف نفسه وامتناعه، فانه فعل وجودى والثواب إنما يقع على الأمر الوجودى دون العدم المحض وان تركه مع عزمه الجازم على فعله لكن تركه عجزاً، فهذا وان لم يعاقب عقوبة الفاعل لكن يعاقب على عزمه وارادته الجازمة التى إنما تخلف مرادها عجزاً.

وقد دلت على ذلك النصوص الكثيرة فلا يلتفت إلى ما خالفها، كقوله تعالى:

﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ (١)،

وقوله فى كاتم الشهادة: ﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٢)،

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (٣)،

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (٤)،

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.
(٤) سورة الطارق: الآية ٩.

والمقتول في النار» ، قالوا: هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : «انه أراد قتل صاحبه» (١). وقوله في الحديث الآخر: «ورجل قال لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء» (٢).

وقول من قال: إن المطلوب بالنهي فعل الضد ليس كذلك ، فان المقصود عدم الفعل والتلبس بالضدين ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو غير مقصود بالقصد الأول ، وان كان المقصود بالقصد الأول المأمور الذى نهى عما يمنعه ويضعفه ، فالمنهى عنه مطلوب اعدامه طلب الوسائل والذرائع ، والمأمور به مطلوب ايجاده طلب المقاصد والغايات.

وقول أبي هاشم (٣) : إن تارك القبائح يحمد وإن لم يخطر بباله كف النفس. فإن أراد بحمده أنه لا يذم فصحيح ، وإن أراد أن يثنى عليه بذلك ويحب عليه ويستحق الثواب فغير صحيح . فإن الناس لا يحمدون المجبوب (٤) على ترك الزنا ولا الأخرس على عدم الغيبة والسب ، وإنما يحمدون القادر الممتنع عن قدرة وداع إلى الفعل.

وقول القاضي الإبقاء على العدم الأصلي مقدور، فإن أراد به كف النفس ومنعها فصحيح ، وإن أراد مجرد العدم فليس كذلك.

وهذا يتبين بالوجه الثالث عشر: وهو أن الأمر بالشيء نهى عن ضده من طريق اللزوم العقلي لا القصد الطلبي ، فان الأمر إنما مقصوده فعل المأمور. فإذا كان من لوازمه ترك الضد صار تركه مقصوداً لغيره ، وهذا

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن حنبل بألفاظ مختلفة.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد بألفاظ مختلفة.

(٣) يبدو أنه يقصد بأبي هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتكلم المعتزلي، وقد كان إماماً في العربية عالماً بالكلام ، له آراء انفرد بها ، وله مصنفات في الاعتزال ، وتبعته فرقة سميت «البهشمية» نسبة إلى كنيته «أبي هاشم». ولد في بغداد سنة (٢٤٧ هـ= ٨٦١ م) وفيها توفى سنة (٣٢١ هـ=٩٣٣ م).

(٤) المجبوب: مقطوع الذكر.

هو الصواب فى مسألة الأمر بالشىء هل هو نهى عن ضده أم لا ؟ فهو نهى عنه من جهة اللزوم لا من جهة القصد والطلب . وكذلك النهى عن الشىء، مقصود الناهى بالقصد الأول الانتهاء عن المنهى عنه وكونه مشغلاً بضده جاء من جهة اللزوم العقلى، لكن إنما نهى عما يضاد ما أمر به كما تقدم، فكان المأمور به هو المقصود بالقصد الأول فى الموضعين .

وحرف المسألة أن طلب الشىء طلب له بالذات ولما هو من ضرورته باللزوم، والنهى عن الشىء طلب لتركه بالذات ولفعل ما هو من ضرورة الترك باللزوم، والمطلوب فى الموضعين فعل وكف، وكلاهما أمر وجودى .

الأمر الرابع عشر: أن الأمر والنهى فى باب الطلب نظير النفى والإثبات فى باب الخبر، والمدح والثناء لا يحصلان بالنفى المحض إن لم يتضمن ثبوتاً، فان النفى كاسمه عدم لا كمال فيه ولا مدح، فإذا تضمن ثبوتاً صح المدح به كنفى النسيان المستلزم لكمال العلم وبيانه . ونفى اللغوب والاعياء والتعب المستلزم لكمال القوة والقدرة . ونفى السنة والنوم المستلزم لكمال الحياة والقيومية . ونفى الولد والصاحبة المستلزم لكمال الغنى والملك والربوبية . ونفى الشريك والولى والشفيع بدون الاذن المستلزم لكمال التوحيد والتفرد بالكمال والالهية والملك . ونفى الظلم المتضمن لكمال العدل . ونفى إدراك الأبصار له المتضمن لعظمته وانه أجل من أن يدرك وان رأته الأبصار، وإلا فليس فى كونه لا يرى مدح بوجه من الوجوه، فإن العدم المحض كذلك .

وإذا عرف هذا فالمنهى عنه ان لم يتضمن أمراً وجودياً ثبوتيا لم يمدح بتركه ولم يستحق الثواب والثناء بمجرد الترك كما لا يستحق المدح والثناء بمجرد الوصف العدمى .

الوجه السادس عشر: أن المنهى عنه المقصود إعدامه فـي ، والا يدخل في الوجود، سواء نوى. ذلك أو لم ينوه، وسواء خطر بباله أو لم يخطر. فالمقصود الا يكون. وأما المأمور به فالمقصود كونه وإيجاده والتقرب به نية وفعلاً.

وسـر المسألة: أن وجود ما طلب إيجاده أحب إليه من عدم ما طلب إعدامه، وعدم ما أحبه أكره إليه من وجود ما يبغضه، فحبته لفعل ما أمر به أعظم من كراهته لفعل ما نهى عنه.

يوضحه الوجه السابع عشر: أن فعل ما يحبه والاعانة عليه وجزاءه وما يترتب عليه من المدح والثناء من رحمته. وفعل ما يكرهه وجزاءه وما يترتب عليه من الذم والألم والعقاب من غضبه. ورحمته سابقة على غضبه غالبة له، وكل ما كان من صفة الرحمة فهو غالب لما كان من صفة الغضب، فانه سبحانه لا يكون إلا رحيماً، ورحمته من لوازم ذاته كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وإحسانه، فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك. وليس كذلك غضبه، فانه ليس من لوازم ذاته ولا يكون غضبان دائماً لا يتصور انفكاكه، بل يقول رسله وأعلم الخلق به يوم القيامة: «ان ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله» [1]. ورحمته وسعت كل شيء، وغضبه لم يسع كل شيء. وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ولم يكتب على نفسه الغضب، ووسع كل شيء رحمة وعلماً ولم يسع كل شيء غضباً وانتقاماً.

فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة على الغضب وما كان منه وآثاره. فوجود ما كان بالرحمة أحب إليه من وجود ما كان من لوازم الغضب. ولهذا كانت الرحمة أحب إليه من العذاب، والعفو أحب

---

(١) رواه البخارى فى الأنبياء، والترمذى فى القيامة، ومسلم فى الإيمان.

إليـه من الانتقام. فوجود محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، ولا سيما إذا كـان فـى فـوات مكروهه فوات ما يحبه من لوازمه، فانه يكره فوات تلك اللوازم المحبوبة كما يكره وجود ذلك الملزوم المكروه.

الوجه الثامن عشر: ان آثار ما يكرهه وهو المنهيات أسرع زوالاً بما يحبه من زوال آثار ما يحبه بما يكرهه، فآثار كراهته سريعة الزوال وقد يزيلها سبحانه بالعفو والتجاوز، وتزول بالتوبة والاستغفار والأعمال الصالحة والمصائب المكفرة والشفاعة والحسنات يذهبن السيئات، لو بلغت ذنوب العبد عنان السماء ثم استغفره غفر له ولو لقيه بقراب الأرض خطايا(١)، ثم لقيه لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة. وهو سبحانه يغفر الذنوب وان تعاظمت ولا يبالى، فيبطلها ويبطل آثارها بأدنى سعى من العبد وتوبة نصوح وندم على ما فعل؛ وما ذاك إلا فوجود ما يحبه من توبة العبد وطاعته وتوحيده، فدل على أن وجود ذلك أحب إليه وأرضى له.

يوضحه الوجه التاسع عشر: وهو أنه سبحانه قدر ما يبغضه ويكرهه من المنهيات لما يترتب عليها مما يحبه ويفرح به من المأمورات. فانه سبحانه أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرحه بتوبة العبد مثلاً ليس فى المفروح به أبلغ منه، وهذا الفرح العظيم الذى وجوده أحب إليه من فواته، ووجوده بدون لازمه ممتنع، فدل على أن وجود ما يحب أحب إليه من فوات كل فرد مما يكره حتى تكون ركعتا الضحى أحب إليه من فوات قتل المسلم، وإنما المراد أن جنس فعل المأمور أفضل من جنس ترك المحظورات، كما إذا فضل الذكر على الأنثى والانسى على الملك(٢)، فالمراد الجنس لا عموم الأعيان.

(١) أى بما يقارب الأرض، يعنى بخطايا كثيرة جداً تقارب الأرض فى كبرها وكثرتها.

(٢) الإنسى: مفرد الإنس: البشر، وقصد بها جنس الإنسان.

والمقصود أن هذا الفرح الذى لا فرح يشبهه بفعل مأمور التوبة يدل على أن هذا المأمور أحب إليه من فوات المحظور الذى تفوت به التوبة وأثرها ومقتضاها.

فإن قيل: إنما فرح بالتوبة لأنها ترك للمنهى فكان الفرح بالترك، قيل: ليس كذلك، فإن الترك المحض لا يوجب هذا الفرح بل ولا الثواب ولا المدح. وليست التوبة تركاً، وان كان الترك من لوازمها، وإنما هى فعل وجودى يتضمن إقبال التائب على ربه وانابته إليه والتزام طاعته. ومن لوازم ذلك ترك ما نهى عنه ولهذا قال تعالى:

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ (1)

فالتوبة رجوع مما يكره إلى ما يحب، وليست مجرد الترك، فإن من ترك الذنب تركاً مجرداً ولم يرجع منه إلى ما يحبه الرب تعالى لم يكن تائباً، فالتوبة رجوع وإقبال وإنابة لا ترك محض.

الوجه العشرون: أن المأمور به إذا فات فاتت الحياة المطلوبة للعبد، وهى التى قال تعالى فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (2).

وقال: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ (3)،

وقال فى حق الكفار: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ (4)،

وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (5)

---

(1) سورة هود: الآية ٣.
(2) سورة الأنفال: الآية ٢٤.
(3) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.
(4) سورة النحل: الآية ٢١.
(5) سورة النمل: الآية ٨٠.

وأما المنهى عنه فإذا وجد فغايته ان يوجد المرض، وحياة مع السقم خير من موت.

فإن قيل: ومن المنهى عنه ما يوجب الهلاك وهو الشرك، قيل: الهلاك إنما حصل بعدم التوحيد المأمور به الذى به الحياة، فلما فقد حصل الهلاك، فما هلك إلا من عدم اتيانه بالمأمور به.

وهذه وجه حاد وعشرون فى المسألة: وهو أن فى المأمورات ما يوجب فواته الهلاك والشقاء الدائم، وليس فى المنهيات ما يقتضى ذلك.

الوجه الثانى والعشرون: أن فعل المأمور يقتضى ترك المنهى عنه إذا فعل على وجهه من الاخلاص والمتابعة والنصح لله فيه، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ (١).

ومجرد ترك المنهى لا يقتضى فعل المأمور ولا يستلزمه.

الوجه الثالث والعشرون: أن ما يحبه من المأمورات فهو متعلق بصفاته، وما يكرهه من المنهيات فتعلق بمفعولاته، وهذا وجه دقيق يحتاج إلى بيان، فنقول:

المنهيات شرور وتفضى إلى الشرور، والمأمورات خير وتفضى إلى الخيرات، والخير بيديه سبحانه والشر ليس إليه، فإن الشر لا يدخل فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه، وإنما هو فى المفعولات مع أنه شر بالاضافة والنسبة إلى العبد، وإلا من حيث اضافته ونسبته إلى الخالق سبحانه، فليس بشر من هذه الجهة. فغاية ارتكاب المنهى أن يوجب شراً بالاضافة إلى العبد مع أنه فى نفسه ليس بشر. وأما فوات المأمور فيفوت به الخير الذى يفوته يحصل ضده من الشر، وكلما كان المأمور أحب إلى الله سبحانه كان الشر الحاصل بفواته أعظم كالتوحيد والإيمان.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

وسر هذه الوجوه أن المأمور به محبوبه، والمنهى مكروهه، ووقوع محبوبه أحب إليه من فوات مكروهه، وفوات محبوبه أكره إليه من وقوع مكروهه والله أعلم.

فصل
الذكر والشكر

مبنى الدين على قاعدتين: الذكر والشكر، قال تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ(٢): «والله إنى لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»، وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان بل الذكر القلبى واللسانى. وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والايمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح. وذلك لا يتم إلا بتوحيده. فذكره الحقيقى يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه واحسانه إلى خلقه.

وأما الشكر فهو القيام له بطاعته والتقرب إليه بانواع محابه ظاهرا وباطنا، وهذان الأمران هما جماع الدين، فذكره مستلزم لمعرفته وشكره، متضمن لطاعته، وهذان هما الغاية التى خلق لأجلها الجن والانس والسماوات والأرض، ووضع لأجلها الثواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، وهى الحق الذى به خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وضدها هو الباطل والعبث الذى يتعالى ويتقدس عنه، وهو ظن أعدائه به. قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٢.

(٢) معاذ بن جبل الصحابى المشهور.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ (١)

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ﴾ (٣)

وقال بعد ذكر آياته فى أول سورة يونس:

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (٤)

وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ (٥)

وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٦)

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٧)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ (٨)

وقال ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

(١) سورة ص: الآية ٢٧.
(٢) سورة الدخان: الآية ٣٨.
(٣) سورة الحجر: الآية ٨٥
(٤) سورة يونس: الآية ٥.
(٥) سورة القيامة: الآية ٣٦.
(٦) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.
(٧) سورة الذاريات: الآية ٥٦.
(٨) سورة الطلاق: الآية ١٢.

ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر. يذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر. وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره، فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله (٢). فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وانابة، وللسان ثناء وحمد، وللجوارح طاعة وخدمة.

فصل

الهداية تجر الهداية والضلال يجر الضلال

تكرر فى القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والاضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضى الهدى اقتضاء السبب لمسببه والمؤثر لأثره. وكذلك الضلال، فأعمال البر تثمر الهدى، وكلما ازداد منها ازداد هدى. وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازى عليها بالهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازى عليها بالضلال والشقاء.

وأيضا فإنه البر ويحب أهل البر فيقرب قلوبهم منه بحسب ما قاموا به من البر، ويبغض الفجور وأهله فيبعد قلوبهم منه بحسب ما اتصفوا به من الفجور، فمن الأصل قوله تعالى:

﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)

وهذا يتضمن أمرين:

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٧.

(٢) أى: فذكر العبد سبب لذكر الله عز وجل، وشكر العبد سبب لزيادة الله من فضله.

(٣) سورة البقرة: الآية ١ — ٢.

أحدهما: أنه يهدى به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد فى الأرض ويمقت فاعل ذلك، ويحب العدل والاحسان والجود والصدق والاصلاح فى الأرض ويحب فاعل ذلك. فلما نزل الكتاب أثاب سبحانه أهل البر بأن وفقهم للايمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به.

مراتب الهداية

والأمر الثانى: أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملا وقبل أوامره وصدق بأخباره، كان ذلك سببا لهداية أخرى تحصل له على التفصيل. فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ، ففوق هدايته هداية أخرى وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية. فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى، فهو فى مزيد هداية ما دام فى مزيد من التقوى. وكلما فوت حظا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، فكلما اتقى زاد هداه، وكلما اهتدى زادت تقواه. قال تعالى:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (٣)

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٥ ــ ١٦.
(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.
(٣) سورة الأعلى: الآية ١٠.

وقال: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ (١)

وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ﴾ (٢)

فهداهم أولا للايمان، فلما آمنوا هداهم للايمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله تعالى:

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (٤)

ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذى يفرقون به بين الحق والباطل والنصر والعز الذى يتمكنون به من اقامة الحق وكسر الباطل، فسر القرآن بهذا وبهذا. وقال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٥)

وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٦)

فى سورة لقمان وسورة إبراهيم وسبأ والشورى.

فأخبر عن آياته المشهودة العيانية أنها إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر، كما أخبر عن آياته الايمانيه القرآنية أنها إنما ينتفع بها أهل التقوى والخشية والانابة ومن كان قصده اتباع رضوانه، وأنها إنما يتذكر بها من يخشاه سبحانه كما قال:

﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (٧)

---

(١) سورة غافر: الآية ١٣.
(٢) سورة يونس: الآية ٩.
(٣) سورة مريم: الآية ٧٦.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٢٩.
(٥) سورة سبأ: الآية ٩.
(٦) سورة سبأ: الآية ١٩.
(٧) سورة طه: الآية ١ ـ ٣.

وقال فى الساعة: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ (١)،

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانية ولا القرآنية. لهذا لما ذكر سبحانه فى سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسل وما حل بهم فى الدنيا من الخزى، قال بعد ذلك:

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (٢)

فأخبر أن فى عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وأما من لا يؤمن بها ولا يخاف عذابها فلا يكون ذلك عبرة وآية فى حقه، وإذا سمع ذلك قال: لم يزل فى الدهر الخير والشر والنعيم والبؤس والسعادة والشقاوة. وربما أحال ذلك على أسباب فلكية وقوى نفسانية. وإنما كان الصبر والشكر سببا لانتفاع صاحبهما بالآيات، لأن الايمان ينبنى على الصبر والشكر، فنصفه صبر ونصفه شكر، فعلى حسب صبر العبد وشكره تكون قوة إيمانه. وآيات الله إنما ينتفع بها من آمن بالله وآياته، ولا يتم له الايمان إلا بالصبر والشكر، فإن رأس الشكر التوحيد، ورأس الصبر ترك اجابة داعى الهوى. فإذا كان مشركا متبعا هواه لم يكن صابرا ولا شكورا، فلا تكون الآيات نافعة له ولا مؤثرة فيه ايمانا.

فصل

وأما الأصل الثانى: وهو اقتضاء الفجور والكبر والكذب للضلال فكثير أيضا فى القرآن كقوله تعالى:

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ

(١) سورة النازعات: الآية ٤٥. (٢) سورة هود: الآية ١٠٣.

﴿ ... يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٥)

فأخبر أنه عاقبهم على تخلفهم عن الإيمان لما جاءهم وعرفوه وأعرضوا عنه بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم وحال بينهم وبين الايمان، كما قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ (٦)

فأمرهم بالاستجابة له ولرسوله حين يدعوهم إلى ما فيه حياتهم، ثم حذرهم من التخلف والتأخر عن الاستجابة الذى يكون سببا لأن يحول بينهم و بين قلوبهم. وقال تعالى:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦ — ٢٧.
(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.
(٣) سورة النساء: الآية ٨٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ٨٨.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٠.
(٦) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٢)

فأخبر سبحانه أن كسبهم غطى على قلوبهم وحال بينهم وبين الايمان بآياته، فقالوا أساطير الأولين.

وقال تعالى فى المنافقين: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٣)

فجازاهم على نسيانهم له أن نسيهم فلم يذكرهم بالهدى والرحمة، وأخبر أنه أنساهم أنفسهم فلم يطلبوا كمالها بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق، فأنساهم طلب ذلك ومحبته ومعرفته والحرص عليه عقوبة لنسيانهم له، وقال تعالى فى حقهم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (٤)

فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذى هو ثمرته وموجبه كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى.

فصل

الهدى قرين الرحمة والضلال قرين الشقاء

وكما يقرن سبحانه بين الهدى والتقى والضلال والغى، فكذلك يقرن بين الهدى والرحمة والضلال والشقاء، فمن الأول قوله:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الصف: الآية ٥.
(٢) سورة المطففين: الآية ١٤.
(٣) سورة التوبة: الآية ٦٧.
(٤) سورة محمد: الآية ١٦ ــ ١٧.
(٥) سورة البقرة: الآية ٥.

وقال: ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١)

وقال عن المؤمنين ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢)

وقال أهل الكهف: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٣)

وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤)

وقال: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥)

وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦)

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧)

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٧.
(٢) آل عمران: الآية ٨.
(٣) سورة الكهف: الآية ١٠.
(٤) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٥) سورة النحل: الآية ٦٤.
(٦) سورة النحل: ٨٩.
(٧) سورة يونس: الآية ٥٧.

ثم أعاد سبحانه ذكرها فقال:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ (1)،

وقد تنوعت عبارات السلف فى تفسير الفضل والرحمة، والصحيح أنهما الهدى والنعمة، ففضله هداه، ورحمته نعمته، ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة كقوله فى سورة الفاتحة:

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ (2)

ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (3)

فجمع له بين هدايته له وانعمامه عليه بايوائه واغنائه. ومن ذلك قول نوح:

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ (4)

وقول شعيب: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ (5)

وقال عن الخضر: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (6)

وقال لرسوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ

---

(1) سورة يونس: الآية 58.
(2) سورة الفاتحة: الآية 6.
(3) سورة الضحى: الآية 6 و7 و8.
(4) سورة هود: الآية 28.
(5) سورة هود: الآية 88.
(6) سورة الكهف: الآية 65.

مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۞ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾ (١)

وقال : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ (٢)

وقال : ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾ (٣)

ففضله هدايته ورحمته انعامه واحسانه إليهم وبره بهم . وقال :

﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ (٤)

والهدى منعه من الضلال ، والرحمة منعه من الشقاء ، وهذا هو الذى ذكره فى أول السورة فى قوله :

﴿ طه ۞ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ (٥)

فجمع له بين انزال القرآن عليه ونفى الشقاء عنه ، كما قال فى آخرها فى حق اتباعه : ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾

فالهدى والفضل والنعمة والرحمة متلازمات لاينفك بعضها عن بعض ، كما أن الضلال والشقاء متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴾ (٦)

---

(١) سورة الفتح: الآية ١ و٢ و٣.
(٢) سورة النساء: الآية ١١٣ .
(٣) سورة النور: الآية ٢١ .
(٤) سورة طه : الآية ١٢٣ .
(٥) سورة طه: الآية ١ .
(٦) سورة القمر: الآية ٤٧ .

والسعر: جمع سعير، وهو العذاب الذى هو غاية الشقاء. وقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى عنهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢)

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدى وانشراح الصدر والحياة الطيبة وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة والضنك، قال تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (٣)

وقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٤)

وكذلك يجمع بين الهدى والانابة وبين الضلال وقسوة القلب، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (٥)

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٦)

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الملك: الآية ١٠.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٥.

(٤) سورة الزمر: الآية ٢٢.

(٥) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٦) سورة الزمر: الآية ٢٢.

فصل
العطاء والمنع

والهدى والرحمة وتوابعهما من الفضل والانعام كله من صفة العطاء، والاضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام، فلا إله إلا الله.

فصل
العاقل لايتعلق بالعالم السفلى

إذا رأيت النفوس المبطلة الفارغة من الارادة والطلب لهذا الشأن قد تشبث بها هذا العالم السفلى وقد تشبثت به فكلها إليه، فإنه اللائق بها لفساد تركيبها ولا تنقش عليها ذلك فإنه سريع الانحلال عنها ويبقى تشبثها به مع انقطاعه عنها عذابا عليها بحسب ذلك التعلق، فتبقى شهوتها وارادتها فيها. وقد حيل بينها وبين ما تشتهى على وجه يئست معه من حصول شهوتها ولذتها. فلو تصور العاقل ما فى ذلك من الألم والحسرة لبادر إلى قطع هذا التعلق كما يبادر إلى حسم مواد الفساد، ومع هذا فإنه ينال نصيبه من ذلك وقلبه وهمه متعلق بالمطلب الأعلى، والله المستعان.

فصل
مفاسد الكذب

إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هى عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصور المعدوم موجودا والموجود معدوما، والحق باطلا والباطل حقا، والخير شرا والشر

خيرا، فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له. ثم يصور ذلك فى نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه. ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة نزاعة إلى العدم مؤثرة للباطل. وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التى هى مبدأ كل فعل إرادى فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها فصار صدورها عنه كمصدر الكذب عن اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار»(١). وأول ما يسرى الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسرى إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب. فكل عمل صالح ظاهر أوباطن فمنشؤه الصدق. وكل عمل فاسد ظاهر أوباطن فمنشؤه الكذب. والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (٢)

---

(١) ورد الحديث فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود والترمذى بألفاظ مختلفة. ولفظه عند مالك أن عبد الله بن مسعود كان يقول: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار. ألا ترى أنه يقال: صدق وبر، وكذب وفجر». (الموطأ ــ الحديث ١٨١٤ ــ طبعة دار النفائس).

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٩.

وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ (1)

وقال : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (2)

وقال : ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (3)

فصل
وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم

فى قوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (4)

فى هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح العبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتى بالمحبوب، والمحبوب قد يأتى بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد (و) أوجب له ذلك أمورا :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه فى الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهى وإن هويته نفسه ومالت إليه، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير

(1) سورة المائدة: الآية ١١٩.
(2) سورة محمد: الآية ٢١.
(3) سورة التوبة: الآية ٩٠.
(4) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل. فنظر الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غاياتها، والعاقل الكيس دائما ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة. فيرى المناهى كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم. ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوى يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها فى طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضى من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ويقضيه له لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئا بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضى بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر وصرف عنه الآفات التى هى عرضة اختيار العبد لنفسه وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه، بما يختاره هو لنفسه.

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المتعبة فى انواع الاختيارات، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التى يصعد منها فى عقبة وينزل فى أخرى، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضى باختيار الله

أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه . لأنه مع اختياره لنفسه ، ومتى صح تفويضه ورضاه ، اكتنفه فى المقدور العطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه ، فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهون عليه ما قدره .

إذا نفذ القدر فى العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله فى رده ، فلا أنفع له من الاستسلام والقاء نفسه بين يدى القدر طريحا كالميتة ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف .

فصل
شروط السعادة بالعلم

لا ينتفع بنعمة الله بالايمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها ولم يتجاوزه إلى ما ليس له ولم يتعد طوره ولم يقل هذا لى ، وتيقن أنه الله ومن الله وبالله فهو المان (1) به ابتداء وادامة بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه ، فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرا البتة ، وأن الخير الذى وصل إليه فهو لله وبه ومنه فتحدث له النعم ذلا وانكسارا عجيبا لا يعبر عنه . فكلما حدد له نعمة ازداد ذلا وانكسارا وخشوعا ومحبة وخوفا ورجاء ، وهذا نتيجة علمين شريفين : علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده واحسانه ورحمته ، وأن الخير كله فى يديه وهو ملكه يؤتى منه من يشاء ويمنع منه من يشاء ، وله الحمد على هذا ، وهذا أكمل حمد وأتمه . وعلمه بنفسه ووقوفه على حدها وقدرها ونقصها وظلمها وجهلها ، وأنها لا خير فيها البتة ولا لها ولا بها ولا منها وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلا العدم الذى لا شىء أحقر منه ولا أنقص ، فما فيها

(1) المان : اسم فاعل من ، فهو المان جل وعلا .

من الخير تابع لوجودها الذى ليس إليها و لا بها. فإذا صار هذان العلمان صبغة لها لا صيغة على لسانها علمت حينئذ أن الحمد كله لله والأمر كله له والخير كله فى يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء والمدح دونها، وأنها هى أولى بالذم والعيب واللوم. ومن فاته التحقق بهذين العلمين تلونت به أقواله وأعماله وأحواله وتخبطت عليه ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل له إلى الله. فايصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علما وحالا، وانقطاعه بفواتها. وهذا معنى قولهم: من عرف نفسه عرف ربه فإنه من عرف نفسه بالجهل والظلم والعيب والنقائص والحاجة والفقر والذل والمسكنة والعدم، عرف ربه بضد ذلك فوقف بنفسه عند قدرها ولم يتعد بها طورها، وأثنى عليه ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه وخشيته ورجائه وانابته وتوكله اليه وحده، وكان أحب شيء إليه وأخوف شيء عنده وارجاه له، وهذا هو حقيقية العبودية، والله المستعان.

ويحكى أن بعض الحكماء كتب على باب بيته: أنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها، فمن كان كذلك فليدخل والا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة.

فصل
مساوىء الشهوات

الصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة، فإنها اما أن توجب ألما وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتا اضاعته حسرة وندامة، وإما أن تثلم عرضا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرا وجاها قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقا لم يكن يجدها قبل ذلك،

وإما أن تجلب هما وغما وحزنا وخوفا لا يقارب لذة الشهوة ، وإما أن تنسى علما ذكره ألذ من نيل الشهوة ، وإما أن تشمت عدوا وتحزن وليا ، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة ، وإما أن تحدث عيبا يبقى صفة لا تزول ، فإن الأعمال تورث للصفات والأخلاق .

فصل
حدود الأخلاق

للأخلاق حد متى جاوزته صارت عدوانا ، ومتى قصرت عنه كان نقصا ومهانة .

فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص ، وهذا كماله . فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار ، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل .

وللحرص حد وهو الكفاية فى أمور الدنيا وحصول البلاغ منها ، فمتى نقص من ذلك كان مهانة واضاعة ، ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه .

وللحسد حد وهو المنافسة فى طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره ، فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على ايذائه ، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس . قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس» (١) ، فهذا حسد منافسة

(١) رواه أحمد بن حنبل والبخارى ولفظه عند البخارى فى باب التمنى : «لا تحاسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل والنهار يقول : لو أوتيت مثل ما أوتى هذا لفعلت كما يفعل : ورجل آتاه الله مالا ينفقه فى حقه فيقول : لو أوتيت مثل ما أوتى لفعلت كما يفعل» .

يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى به زوال النعمة عن المحسود.

وللشهوة حد وهو راحة القلب والعقل من كد الطاعة واكتساب الفضائل والاستعانة بقضائها على ذلك، فمتى زادت على ذلك صارت نهمة وشبقا والتحق صاحبها بدرجة الحيوانات، ومتى نقصت عنه ولم يكن فراغا فى طلب الكمال والفضل كانت ضعفا وعجزا ومهانة.

وللراحة حد وهو اجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانيا وكسلا وأضاعة وفات به أكثر مصالح العبد، ومتى نقص عنه صار مضرا بالقوى موهنا لها وربما انقطع به كالمنبت الذى لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى.

والجود له حد بين طرفين، فمتى جاوز حده صار اسرافا وتبذيرا، ومتى نقص عنه كان بخلا وتقتيرا.

وللشجاعة حد إذا جاوزته صار تهورا، ومتى نقصت عنه صار جبنا وخورا. وحدها الاقدام فى مواضع الاقدام والاحجام فى مواضع الاحجام، كما قال معاوية لعمرو بن العاص: أعيانى أن أعرف أشجاعا أنت أم جبانا تقدم حتى أقول من أشجع الناس، وتجبن حتى أقول من أجبن الناس، فقال:

شجاع إذا امكنتنى فرصة فإن لم تكن لى فرصة فجبان

والغيرة لها حد إذا جاوزته صارت تهمة وظنا سيئا بالبرىء، وإذا قصرت عنه كانت تغافلا ومبادىء دياثة.

وللتواضع حد إذا جاوزه كان ذلا ومهانة، ومن قصر عنه انحرف إلى الكبر والفخر.

وللعز حد إذا جاوزه كان كبرا وخلقا مذموما، وإن قصر عنه انحرف إلى الذل والمهانة.

خير الأمور الوسط

وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الافراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به. فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أونقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك. وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطا بين الطرفين المذمومين كانت عدلا وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصا وأثمرت نقصا.

فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيا حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها ولا يخرج منها ما هو داخل فيها. قال تعالى:

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ (١) فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلا، وبالله التوفيق.

فصل
التقوى في القلوب

قال أبو الدرداء(٢) رضي الله عنه: يا حبذا نوم الأكياس(٣)

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٧.

(٢) اسمه عويمر بن مالك، صحابي أنصاري، كان تاجراً في المدينة ثم انقطع للعبادة بعد إسلامه. اشتهر بالشجاعة، أبلى بلاء حسنا في معركة أحد. ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر من عمر ابن الخطاب. وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم. مات في الشام سنة (٣٢ هـ= ٦٥٢ م).

(٣) الأكياس: جمع كيس. وهو عكس الأحمق.

وفطرهم كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. وهذا من جواهر الكلام وأدلته على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير، رضى الله عنهم.

فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه. والتقوى فى الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح. قال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (1)

وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (2)

وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «التقوى ههنا: وأشار إلى صدره» (3).

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق. فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه فى همته تقدم عليه بعمله، وهذا موضع يحتاج إلى تفصيل يوافق فيه الاسلام الاحسان.

اكمل الهدى

فاكمل الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان موفيا كل واحد منها(4) حقه، فكان مع كماله وارادته وأحواله مع الله حتى

(1) سورة الحج: الآية ٣٢. (2) سورة الحج: الآية ٣٧.

(3) رواه الترمذى وأحمد بن حنبل.

(4) يعود الضمير إلى ما يفسره الكلام السابق من قوله: «الإسلام والإحسان».

ترم قدماه، ويصوم حتى يقال لا يفطر، ويجاهد في سبيل الله، ويخالط أصحابه ولا يحتجب عنهم، ولا يترك شيئا من النوافل والأوراد لتلك الواردات التي تعجز عن حملها قوى البشر. والله تعالى أمر عباده أن يقوموا بشرائع الاسلام على ظواهرهم وحقائق الايمان على بواطنهم، ولا يقبل واحدا منهما إلا بصاحبه وقرينه.

وفي المسند مرفوعا: «الاسلام علانية والايمان في القلب». فكل اسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الايمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الايمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الاسلام الظاهر لا تنفع ولو كانت ما كانت. فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار. كما أنه لو قام بظواهر الاسلام وليس في باطنه حقيقة الايمان لم ينجه ذلك من النار.

وإذا عرف هذا، فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان:

قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وان لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال.

وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده والجمعية عليه وحفظ الخواطر والارادات معه. وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والانابة ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أحب إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعية ووارد أنس أوحب أواشتياق أو انكسار وذل، لم يستبدل به شيئا سواه البتة، إلا أن يجيء الأمر فيبادر إليه بذلك الوارد

إن أمكنه، وإلا بادر إلى الأمر ولو ذهب الوارد. فإذا جاءت النوافل فههنا معترك التردد، فإن أمكن القيام إليها به فذاك والا نظر فى الأرجح والأحب إلى الله، هل هو القيام إلى تلك النافلة ولو ذهب وارده كاغاثة الملهوف وإرشاد ضال وجبر مكسور واستفادة ايمان ونحو ذلك، فههنا ينبغى تقديم النافلة الراجحة، ومتى قدمها لله رغبة فيه وتقربا إليه فإنه يرد عليه ما فات من وارده أقوى مما كان فى وقت آخر، وان كان الوارد أرجح من النافلة فالحزم له الاستمرار فى وارده حتى يتوارى عنه فإنه يفوت والنافلة لا تفوت.

وهذا موضع يحتاج إلى فضل فقه فى الطريق ومراتب الأعمال وتقديم الأهم منها فالأهم، والله الموفق لذلك لا إله غيره ولا رب سواه.

فصل

أصل الأخلاق الممدوحة والمذمومة

أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة، فالفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغى والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والاعراض وأباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرئاسة. أن يحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك، كلها ناشئة من الكبر.

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير ونحو ذلك، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والايثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والاخلاص والمكافأة على

الاحسان بمثله أوأفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لايعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك، فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة. والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق.

وأما النار فطبعها العلو والافساد ثم تخمد فتصير أحقر شيء وأذاه، وكذلك المخلوق منها. فهي دائما بين العلو إذا هاجت واضطربت، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت. والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها، والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها. فمن علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل.

فصل
مستلزمات المطالب العليا

المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره. وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول غايته. وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى. وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه. فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه وطريقه ولايتم له إلا بترك ثلاثة أشياء:

الأول: العوائد والرسوم والأوضاع التي أحدثها الناس.

الثاني: هجر العوائق التي تعوقه عن أفراد مطلوبه وطريقه وقطعها.

الثالث: قطع علائق القلب التى تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب. والفرق بينهما أن العوائق هي الحوادث الخارجية، والعلائق هى التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها. وأصل ذلك ترك الفضول التى تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ويرفض منه ما يقطعه عنه أويضعف طلبه، والله المستعان.

فصل
من حكم ابن مسعود

من كلام عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: قال رجل عنده(١): ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أحب أن أكون من المقربين. فقال عبد الله: لكن ههنا رجل ود أنه إذا مات لم يبعث، يعنى نفسه.

وخرج ذات يوم فأتبعه ناس فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا لا، ولكن أردنا أن نمشى معك، قال: ارجعوا، فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وقال: لو تعلمون منى ما أعلم من نفسى لحثوتم(٢) على رأسى التراب.

وقال: حبذا المكروهان: الموت والفقر وأيم الله إن هو إلا الغنى والفقر وما أبالى بأيها بليت، أرجو الله فى كلّ واحد منهما، إن كان الغنى إن فيه للعطف، وإن كان الفقر إن فيه للصبر.

وقال: إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتى بغتة، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرا

(١) أى عند ابن مسعود.   (٢) أى لوضعتم.

فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مثل ما زرع لا يسبق بطىء بحظه ولا يدرك حريص ما لم يقدر له .

* من أعطى خيرا فالله أعطاه ، ومن وقى شرا فالله وقاه .

* المتقون سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة .

* إنما هما اثنتان : الهدى والكلام ، فأفضل الكلام كلام الله ، وأفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، فلا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل فإن كل ما هو آت قريب ، ألا وان البعيد ما ليس آتيا ، ألا وإن الشقى من شقى فى بطن أمه ، وإن السعيد من وعظ بغيره ، ألا وان قتال المسلم كفر وسبابه فسوق ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام حتى يسلم عليه إذا لقيه ويجيبه إذا دعاه ويعوده إذا مرض. ألا وإن شر الروايا روايا الكذب ، ألا وإن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ولا أن يعد الرجل صبيه شيئا ثم لا ينجزه ألا وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار ، والصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة ، وانه يقال للصادق صدق وبر ، ويقال للكاذب كذب وفجر ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم حدثنا أن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

* ان أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقى ، وخير الملة ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وخير الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها ، وشر الأمور محدثاتها ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ونفس تنجيها خير من امارة لا تحصيها ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة ، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، وخير ما ألقى فى القلب

اليقين، والريب من الكفر، وشر العمى عمى القلب، والخمر جماع الأثم، والنساء حبائل الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، والنوح من عمل الجاهلية.

* من الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرا (١) ولا يذكر الله إلا هجرا. وأعظم الخطايا الكذب، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله (٢)، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المآكل مال اليتيم، وإنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه، وإنما يصير إلى أربعة أذرع والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، وأشرف الموت قتل الشهداء، ومن يستكبر يضعه الله، ومن يعص الله يطع الشيطان.

* ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، و بنهاره إذا الناس مفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيا محزونا حكيما حليما سكينا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيا ولا غافلا ولا سخابا (٣) ولا صياحا ولا حديدا.

* من تطاول تعظماً حطه الله، ومن تواضع تخشعاً رفعه الله. وان للملك لمة (٤) وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فإذا رأيتم ذلك فاحمدوا الله. ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق، فإذا رأيتم ذلك فتعوذوا بالله.

* ان الناس قد أحسنوا القول، فن وافق قوله فعله فذاك الذى أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبخ نفسه.

---

(١) أى إنه يأتى الصلاة حين يدبر وقتها. (٢) أى يجعل الله العاقبة له.

(٣) من السخب: وهو الصخب. (٤) اللمة: المرة، وللشيطان لمة أى دنو.

* لا ألفين أحدكم جيفة ليل قطرب (١) ، نهار انى لأبغض الرجل أن أراه فارغاً ليس فى شىء من عمل الدنيا ولا عمل الآخرة ، ومن لم تأمره الصلاة بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً .

* من اليقين ألا ترضى الناس بسخط الله ، ولا تحمد أحداً على رزق الله ، ولا تلوم أحداً على ما لم يؤتك الله . فان رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره ، وان الله يقسطه وحلمه وعدله جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

* ما دمت فى صلاة فأنت تقرع باب الملك ، ومن يقرع باب الملك يفتح له .

* انى لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه بالخطيئة يعملها .

* كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت (٢) ، وسرج الليل ، جدد القلوب ، خلقان الثياب ، تعرفون فى السماء وتخفون على أهل الأرض .

* أن للقلوب شهوة وأدبارا فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وادبارها .

* ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية .

* انكم ترون الكافر من أصح الناس جسماً وأمرضه قلباً ، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضه جسماً ، وأيم الله ، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان .

* لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحل بذروته ، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى والتواضع أحب إليه من الشرف ،

---

(١) القطرب: اللص والفأرة.

(٢) كونوا أحلاس البيوت: أى الزموها.

وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء، وأن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع وما معه منه شيء، يأتي الرجل ولا يملك له ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً، فيقسم له بالله أنك لذيت وذيت[1]، فيرجع وما حبى من حاجته بشيء ويسخط الله عليه.

* لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً.

* الإثم حواز[2] القلوب.

* ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعاً.

* مع كل فرحة ترحة وما ملئ بيت حبرة[3] إلا ملىء عبرة. وما منكم إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة إلى أهلها.

* يكون فى آخر الزمان أقوام أفضل أعمالهم التلاوم بينهم يسمون الأنتان[4].

* إذا أحب الرجل أن ينصف من نفسه فليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه.

* الحق ثقيل مرىء والباطل خفيف وبىء.

* رب شهوة تورث حزناً طويلاً.

* ما على وجه الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

* إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن بهلاكها.

---

(١) أى كيت وكيت، كناية عن عبارات المدح تملقاً.

(٢) فيه ثلاث روايات: بتشديد الواو أو فتحها فقط أو بتشديد الزاى. والمعنى أنه يسوق القلوب ويغلب عليها.

(٣) الحبرة: النعمة وسعة العيش.

(٤) الأنتان: جمع نتن: من كان به رائحة كريهة.

* من استطاع منكم أن يجعل كنزه فى السماء حيث لا يأكله السوس ولا يناله السراق فليفعل، فإن قلب الرجل مع كنزه.

* لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، فإن آمن آمن وان كفر كفر، وان كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت، فإن الحى لاتؤمن عليه الفتنة.

* لا يكن أحدكم امعة، قالوا وما الامعة؟ قال: يقول أنا مع الناس ان اهتدوا اهتديت وان ضلوا ضللت، ألا ليوطن أحدكم نفسه على أنه ان كفر الناس لايكفر.

وقال له رجل: علمنى كلمات جوامع نوافع، فقال: اعبد الله لا تشرك به شيئاً وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وان كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وان كان حبيباً قريباً.

* يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقال له أد أمانتك، فيقول يا رب من أين وقد ذهبت الدنيا فتمثل على هيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم، فينزل فيأخذها فيضعها على عاتقه فيصعد بها، حتى إذا ظن أنه خارج بها هوت وهوى فى أثرها أبد الآبدين.

* اطلب قلبك فى ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفى مجالس الذكر، وفى أوقات الخلوة. فإن لم تجده فى هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك.

قال الجنيد(١): دخلت على شاب(٢) فسألنى عن التوبة فأجبته،

(١) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخزاز «أبو القاسم»: من العلماء بالدين، صوفى. ولد ببغداد وفيها توفى سنة (٢٩٧ هـ = ٩١٠ م). قال أحد معاصريه: ما رأت عيناى مثله. الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه، والشعراء لفصاحته، والمتكلمون لمعانيه. وهو أول من تكلم فى علم التوحيد ببغداد. وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة.

(٢) ربما كان الصواب «دخل علىّ شاب» كما يدل سياق الحكاية.

فسألني عن حقيقتها، فقلت: أن تنصب ذنبك بين عينيك حتى يأتيك الموت. فقال لي: مه، ما هذا حقيقة التوبة. فقلت له: فما حقيقة التوبة عندك يا فتى؟ قال: أن تنسى ذنبك. وتركني ومضى. فكيف (١) هو عندك يا أبا القاسم؟ فقلت: القول ما قال الفتى. قال: كيف قلت إذا كنت معه في حال ثم نقلني من حال الجفاء إلى حال الوفاء، فذكرى للجفاء في حال الوفاء جفاء.

فصل
الاخلاص وحب الثناء لا يجتمعان

لا يجتمع الاخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت. فإذا حدثتك نفسك بطلب الاخلاص فاقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، واقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الاخلاص.

فان قلت: وما الذي يسهل على ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئاً سواه. وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم: ان مدحي زين وذمي شين، فقال ذلك الله عز وجل. فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت

---

(١) الظاهر أن هنا نقصاً.

الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر فى البحر فى غير مركب . قال تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) ،

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

فصل

اللذة حسب الهمة

لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه ، فأشرف الناس نفساً وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذته فى معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه . فلذته فى اقباله عليه وعكوف همته عليه ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله ، حتى تنتهى إلى من لذته فى أخس الأشياء من القاذورات والفواحش فى كل شىء من الكلام والفعال والأشغال . فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفتت إليه وربما تألمت من ذلك ، كما أن الأول إذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به ولم تلتفت إليه ونفرت نفسه منه .

وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن ، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والأنس بربه . فهذا ممن قال تعالى فيه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ

---

(١) سورة الروم : الآية ٦٠ .

(٢) سورة السجدة : الآية ٢٤ .

﴿ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات:

﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (٢)،

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا فى وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذى أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذى دعاهم إليه الهوى والشهوة وسواء اذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله ارادته (٣) وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى، وان كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة فى لذة الآخرة، ويجم نفسه (٤) ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك. فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همته لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هى مقصوده وهمته، وحولها يدندن، وفواتها فى الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعاً وإلا خسرهما جميعاً.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٢. (٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٠.

(٣) هذا له وجه، ولعل الصواب: فى إرادته وعبادته. فيكون لفظ «فى» ساقطاً من الناسخ.

(٤) أى يبهج نفسه ويسرها.

آثار ترك المعاصى:

سبحان الله رب العالمين. لو لم يكن فى ترك الذنوب والمعاصى إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذى جعله الله قواماً لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق وجواز القول بينهم وصلاح المعاش وراحة البدن وقوة القلب وطيب النفس ونعيم القلب وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصى، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن فى الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التى يكتسبها وجهه، والمهابة التى تلقى له فى قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذى وظلم، وذبهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التى بينه وبين الله، وقرب الملائكة منه، وبعد شياطين الانس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصغر الدنيا فى قلبه، وكبر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير، والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة فى عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعض آثار ترك المعاصى فى الدنيا. فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه وبالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من

سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة. فإذا كان يوم القيامة كان الناس فى الحر والعرق، وهو فى ظل العرش. فإذا انصرفوا من بين يدى الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين. و(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

فصل

ورع عمر بن عبد العزيز

ذكر ابن سعد فى الطبقات(١) عن عمر بن عبد العزيز(٢) أنه كان إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب قطعه. وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه، ويقول: اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى، أعلم أن العبد إذا شرع فى قول أو عمل يبتغى به مرضاة الله مطالعاً فيه منة الله عليه به وتوفيقه له فيه وانه بالله لا بنفسه ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو بالذى أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن. فالذى من عليه بذلك هو الذى من عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذى أصله رؤية نفسه

---

(١) ابن سعد هو محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى «أبو عبد الله». ولد سنة ١٦٨ هـ بالبصرة ونسب إليها، وارتحل إلى بغداد ولازم فيها أستاذه الواقدى. وزار الكوفة والمدينة والتقى بعدد كبير من الشيوخ والأئمة والمحدثين. وقد وصف بأنه كثير العلم، كثير الحديث والرواية، كثير الكتب. كما وصف بالصدق والعدالة والثقة. وتوفى فى الرابع من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ بمدينة بغداد. وكتابه «الطبقات الكبرى» لم يسبقه أحد إليه سوى الواقدى فى طبقاته. ابتدأ الجزء الأول منها بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ترجم للصحابة والتابعين... وهكذا حسب التسلسل الزمنى. فالطبقة الأولى طبقة الصحابة، ثم طبقة التابعين، ثم تابعو التابعين.

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ولد بالمدينة سنة (٦١ هـ = ٦٨١م) وشب بها وولى إمارتها للوليد بن عبدالملك، ثم استوزره سليمان بالشام، وولى الخلافة بعهد منه سنة ٩٩ هـ. اشتهر بالزهد والعدل والصلاح، حتى لقب بخامس الخلفاء الراشدين. وكانت مدة حكمه قصيرة لم تتجاوز السنتين والنصف، فقد توفى مسموماً فى عام (١٠١ هـ = ٧٢٠م).

وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه واعانته. فإذا غاب عن تلك الملاحظة وثبت النفس وقامت فى مقام الدعوى، فوقع العجب ففسد عليه القول والعمل، فتارة يحال بينه وبين تمامه ويقطع عليه ويكون ذلك رحمة به حتى لا يغيب عن مشاهدة المنة والتوفيق. وتارة يتم له ولكن لا يكون له ثمرة، وان أثمر ثمرة ضعيفة غير محصلة للمقصود. وتارة يكون ضرره عليه أعظم من انتفاعه، ويتولد له منه مفاسد شتى بحسب غيبته عن ملاحظة التوفيق والمنة ورؤية نفسه وأن القول والفعل به.

ومن هذا الموضع يصلح الله سبحانه أقوال عبده وأعماله ويعظم له ثمرتها أو يفسدها عليه ويمنعه ثمرتها. فلا شيء أفسد للأعمال من العجب ورؤية النفس، فإذا أراد الله بعبده خيراً أشهده منته وتوفيقه وإعانته له فى كل ما يقوله ويفعله فلا يعجب به. ثم أشهده تقصيره فيه وأنه لا يرضى لربه به فيتوب إليه منه ويستغفره، ويستحيى أن يطلب عليه أجراً. وإذا لم يشهده ذلك وغيبه عنه فرأى نفسه فى العمل ورآه بعين الكمال والرضا، لم يقع ذلك العمل منه موقع القبول والرضا والمحبة. فالعارف يعمل العمل لوجهه مشاهداً فيه منته وفضله وتوفيقه، معتذراً منه إليه، مستحيياً منه إذ لم يوفه حقه. والجاهل يعمل العمل لحظه وهواه ناظراً فيه إلى نفسه يمن به على ربه راضياً بعمله، فهذا لون وذاك لون آخر.

فصل

فوائد هجر العوائد

الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق. فالعوائد السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التى جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هى عندهم أعظم من

الشرع. فانهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع. وربما كفروه أو بدعوه وضللوه، أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن، ونصبوها أنداداً للرسول يوالون عليها ويعادون. فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم قد استولت على طوائف بنى آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمطوعين والعامة. فربى فيها الصغير ونشأ عليها الكبير واتخذت سنناً بل هى أعظم عند أصحابها من السنن. الواقف معها محبوس والمتقيد بها منقطع. عم بها المصاب، وهجر لأجلها السنة والكتاب. من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله فهو عند الله غير مقبول. وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

فصل

العوائق

وأما العوائق فهى أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فانها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه، وهى ثلاثة أمور: شرك، وبدعة، ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ فى أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة. فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحسن[1] بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعداً لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

---

(١) المعنى يستقيم إذا كانت الكلمة «ويحس» بدلاً من «ويحسن».

فصل

والعلائق

وأما العلائق فهى كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع. فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه. وكلما قوى تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره. وكذا بالعكس. والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه. وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه.

فصل

منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم

لما كمل الرسول صلى الله عليه وسلم مقام الافتقار إلى الله سبحانه أحوج (٢) الخلائق كلهم إليه فى الدنيا والآخرة. أما حاجتهم إليه فى الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشرب والنفس الذى به حياة أبدانهم. وأما حاجتهم إليه فى الآخرة فانهم يستشفعون بالرسل إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم. فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع هو لهم وهو الذى يستفتح لهم باب الجنة.

فصل

علامات السعادة والشقاوة

من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد فى علمه زيد فى تواضعه ورحمته. وكلما زيد فى عمله زيد فى خوفه وحذره. وكلما زيد

---

(١) أى الله عز وجل.

فى عمره نقص من حرصه . وكلما زيد فى ماله زيد فى سخائه وبذله . وكلما زيد قدره وجاهه زيد فى قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم .

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد فى على علمه زيد فى كبره وتيهه ، وكلما زيد فى عمله زيد فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه ، وكلما زيد فى عمره زيد فى حرصه ، وكلما زيد فى ماله زيد فى بخله وإمساكه ، وكلما زيد فى قدره وجاهه زيد فى كبره وتيهه وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلى بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام .

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء ، كالملك والسلطان والمال . قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده :

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (١) .

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور . كما أن المحن بلوى منه سبحانه ، فهو يبتلى بالنعم كما يبتلى بالمصائب ، قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا .... ﴾ (٢) ،

أى ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكراماً منى له ، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك اهانة منى له .

---

(١) سورة النمل : الآية ٤٠ .

(٢) سورة الفجر : الآيات ١٥ ــ ١٧ .

فصل

الأعمال بنيان أساسه الإيمان

من أراد علو بنيانه فعليه بتوفيق أساسه وأحكامه وشدة الاعتناء به. فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وأحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه. وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد.

فالعارف همته تصحيح الأساس فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى:

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (١).

فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن ودفعت عنه كثيراً من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن وكانت الآفات إليه أسرع شيء.

فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من خراب الأساس. وهذا الأساس أمران:

الأول: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه وبحسبه يعتلي البناء ما شاء. فأحكم الأساس

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٩.

وأحفظ القوة ودم على الحمية واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوماً:

فاقر السلام على الحياة فانها قد آذنتك بسرعة التوديع

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر لا يقتحمه عدو ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحاً من ذكر الله به تفتحه وتغلقه. فان فتحت فتحت بالمفتاح وان أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصناً تحصنت فيه من أعدائك إذا أطاف به العدو لم يجد منه مدخلاً فييأس منك. ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت، فان العدو إذا لم يطمع فى الدخول من الباب نقب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فان أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدو معك فى داخل الحصن فيصعب عليك اخراجه، وتكون معه على ثلاثة خلال: إما أن يغلبك على الحصن ويستولى عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعود إلى سد النقب ولم شعث الحصن. وإذا دخل نقبه إليك نالك منه ثلاث آفات: إفساد الحصن، والاغارة على حواصله وذخائره، ودلالة السراق من بنى جنسه على عورته، فلا تزال تبلى منه بغارة بعد غارة حتى يضعفوا قواك ويوهنوا عزمك فتتخلى عن الحصن وتخلى بينهم وبينه.

وهذه حال أكثر النفوس مع العدو، ولهذا تراهم يسخطون ربهم برضا أنفسهم، بل برضا مخلوق مثلهم لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ويضيعون كسب الدين بكسب الأموال، ويهلكون أنفسهم بما لا يبقى لهم، ويحرصون على الدنيا وقد أدبرت عنهم، ويزهدون فى الآخرة وقد

هجمت عليهم، ويخالفون ربهم باتباع أهوائهم، ويتكلون على الحياة ولا يذكرون الموت، ويذكرون شهواتهم وحظوظهم وينسون ما عهد الله إليهم، ويهتمون بما ضمنه الله لهم ولا يهتمون بما أمرهم به، ويفرحون بالدنيا ويحزنون على فوات حظهم منها ولا يحزنون على فوات الجنة وما فيها ولا يفرحون بالإيمان فرحهم بالدرهم والدينار، ويفسدون حقهم بباطلهم وهداهم بضلالهم ومعروفهم بمنكرهم، ويلبسون إيمانهم بظنونهم، ويخلطون حلالهم بحرامهم، ويترددون فى حيرة آرائهم وأفكارهم، ويتركون هدى الله الذى أهداه إليهم. ومن العجب أن هذا العدو يستعمل صاحب الحصن فى هدم حصنه بيديه.

فصل

أركان الكفر

أركان الكفر أربعة: الكبر والحسد والغضب والشهوة. فالكبر يمنعه الانقياد، والحسد يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب يمنعه العدل، والشهوة تمنعه التفرغ للعبادة. فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الانقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله، وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة. وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلى بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة وملكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل البتة ولا تزكو نفسه مع قيامها بها. وكلما اجتهد فى العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت فى القلب أرته الباطل فى صورة الحق، والحق فى صورة الباطل، والمعروف فى صورة المنكر، والمنكر فى صورة المعروف، وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة، وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئاً منها وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب

خفتها وشدتها. فمن فتحها على نفسه فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلاً وآجلاً، ومن أغلقها على نفسه أغلق عنه أبواب الشرور، فانها تمنع الانقياد والاخلاص والتوبة والانابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه.

ومنشأ هذه الأربعة من جهله بنفسه، فانه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات، لم يتكبر ولم يغضب لها ولم يحسد أحداً على ما آتاه الله. فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فانه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك. فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته، ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة لأن ذنبه كان عن كبر وحسد. فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده والرضا به وعنه والإنابة إليه. وقلع الغضب بمعرفة النفس وأنها لا تستحق أن يغضب لها وينتقم لها، فإن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها. وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

أما الشهوة فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن أعطاءها شهواتها أعظم الأسباب حرمانها إياها ومنعها منها. وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعياً في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب كنت ساعياً في إيصالها إليها على أكمل الوجوه.

فالغضب مثل السبع إذا أفلته صاحبه بدأ بأكله، والشهوة مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت باحراقه، والكبر بمنزلة منازعة الملك ملكه فإن لم يهلكك طردك عنه، والحسد بمنزلة معاداة من هو أقدر منك، والذى

يغلب شهوته وغضبه يفرق(1) الشيطان من ظله، ومن تغلبه شهوته وغضبه يفرق من خياله.

فصل عظيم النفع

صفات الجهال بالله

الجهال بالله وأسمائه وصفاته المعطلون لحقائها يبغضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون. ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها:

فمنها: أنهم يقررون فى نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وبالغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه. وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقى من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار. ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر. ويروون فى ذلك آثاراً صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾.

وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (2)

وقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (3)

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة وأنه لم يترك فى السماء رقعة فى الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جانى القدر وسطا عليه الحكم فقلب عينه الطيبة وجعلها أخبث شيء حتى قال بعض عارفيهم: انك ينبغى أن تخاف الله

(1) يفرق: يخاف.

(2) سورة الأعراف: الآية ٩٩.

(3) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

كما تخاف الأسد الذى يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته إليه. ويحتجون بقول النبى صلى الله عليه وسلم: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها». ويروون عن بعض السلف: أكبر الكبائر الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله.

وذكر الأمام أحمد (ابن حنبل) عن عون بن عبد الله [1] أو غيره أنه سمع رجلاً يدعو: اللهم لا تؤمنى مكرك، فأنكر ذلك وقال: قل اللهم لا تجعلنى ممن يأمن مكرك. وبنوا هذا على أصلهم الباطل وهو انكار الحكمة والتعليل والأسباب، وأن الله لا يفعل لحكمة ولا بسبب وإنما يفعل بمشيئة مجردة من الحكمة والتعليل والسبب، فلا يفعل لشىء ولا بشىء، وأنه يجوز عليه أن يعذب أهل طاعته أشد العذاب، وينعم أعداءه وأهل معصيته بجزيل الثواب، وأن الأمرين بالنسبة اليه سواء ولا يعلم امتناع ذلك إلا بخبر من الصادق أنه لايفعله. فحينئذ يعلم امتناعه لوقوع الخبر بأنه لا يكون، لا لأنه فى نفسه باطل وظلم، فان الظلم فى نفسه مستحيل فانه غير ممكن. بل هو بمنزلة جعل الجسم الواحد فى مكانين فى آن واحد. والجمع بين الليل والنهار فى ساعة واحدة. وجعل الشىء موجوداً ومعدوماً معاً فى آن واحد. فهذا حقيقة الظلم عندهم. فإذا رجع العامل إلى نفسه قال: من لا يستقر له أمر ولا يؤمن له مكر، كيف يوثق بالتقرب إليه؟ وكيف يعول على طاعته واتباع أوامره وليس لنا سوى هذه المدة اليسيرة؟ فإذا هجرنا فيها اللذات وتركنا

---

(١) هو عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى «أبو عبد الله الكوفى» من أهل المدينة، سكن الكوفة، وكان يقول بالإرجاء ثم رجع عن ذلك. وقال فى ذلك:

لأول مايفارق غير شك　　　نفارق مايقول المرجئونا

وقد خرج مع ابن الأشعث ثم هرب وصحب عمر بن عبد العزيز فى خلافته. وتوفى نحو سنة (١١٥ هـ=٧٣٣ م).

الشهوات وتكلفنا أثقال العبادات وكنا مع ذلك على غير ثقة منه أن يقلب علينا الإيمان كفراً، والتوحيد شركاً، والطاعة معصية، والبر فجوراً، ويديم علينا العقوبات، كنا خاسرين فى الدنيا والآخرة.

فإذا استحكم هذا الاعتقاد فى قلوبهم وتخمر فى نفوسهم صاروا إذا أمروا بالطاعات وهجر اللذات بمنزلة إنسان جعل يقول لولده: معلمك إن كتبت وأحسنت وتأدبت ولم تعصه ربما أقام لك حجة وعاقبك، وإن كسلت وبطلت وتعطلت وتركت ما أمرك به ربما قربك وأكرمك فيودع بهذا القول قلب الصبى ما لا يثق بعده إلى وعيد المعلم على الإساءة ولا وعده على الاحسان. وأن كبر الصبى وصلح للمعاملات والمناصب قال له هذا سلطان بلدنا يأخذ اللص من الحبس فيجعله وزيراً أميراً ويأخذ الكيس المحسن لشغله فيخلده فى الحبس ويقتله ويصلبه. فإذا قال له ذلك أوحشه من سلطانه وجعله على غير ثقة من وعده ووعيده، وأزال محبته من قلبه وجعله يخاف مخالفة الظالم الذى يأخذ المحسن بالعقوبة والبرىء بالعذاب، فأفلس هذا المسكين من اعتقاد كون الأعمال نافعة أو ضارة، فلا يفعل الخير يستأنس، ولا يفعل الشر يستوحش، وهل فى التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا.

وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررا من الصديق الجاهل. وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك ولا سيما القرآن. فلو سلك الدعاة المسلك الذى دعا الله ورسوله به الناس إليه لصلح العالم صلاحا لا فساد معه، فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفى أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ولا يخاف المحسن لديه

ظلما ولا هضما (١)، ولا يخاف بخسا ولا رهقا (٢)، ولا يضيع عمل محسن أبدا، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة ولا يظلمها **(وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما)**، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه. وأنه يجزى بالسيئة مثلها ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزى بالحسنة عشر أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهو الذى أصلح الفاسدين وأقبل بقلوب المعرضين وتاب على المذنبين، وهدى الضالين وانقذ الهالكين، وعلم الجاهلين، وبصر المتحيرين وذكر الغافلين، وآوى الشاردين. وإذا أوقع عقابا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والاقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته والاقرار بربوبيته ووحدانيته أخذه ببعض كفره عتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه وأنه هو الظالم لنفسه كما قال تعالى عن أهل النار:

﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٣)

وقال عمن أهلكهم فى الدنيا أنهم لما رأوا آياته وأحسوا بعذابه قالوا:

﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ (٤)

وقال أصحاب الجنة (٥) التى أفسدها عليهم لما رأوها:

---

(١) هضم حقه: نقصه.

(٢) أى لا يخاف نقصاً فى الثواب ولا ظلماً. والرهق: حمل الإنسان ما لا يطيق.

(٣) سورة الملك: الآية ١١.   (٤) سورة الأنبياء: الآية ١٤ ــ ١٥.

(٥) أى الحديقة (البستان).

﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (١).

وقال الحسن لقد دخلوا النار وأن حمده لفى قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا. ولهذا قال تعالى:

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢)

فهذه الجملة فى موضع الحال أى قطع دابرهم حال كونه سبحانه محمودا على ذلك فقطع دابرهم قطعا مصاحبا لحمده، فهو قطع واهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله ووضعه العقوبة فى موضعها الذى لايليق به غيرها. فوضعها فى الوضع الذى يقول من علم الحال: لاتليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولايليق به إلا العقوبة، ولهذا قال عقيب أخباره عن الحكم بين عباده ومصير أهل السعادة إلى الجنة وأهل الشقاء إلى النار:

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣)

فحذف فاعل القول أشعرا بالعموم وأن الكون كله قال: «الحمد لله رب العالمين» لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله. ولهذا قال فى حق أهل النار:

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ (٤)

كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم، وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه انجى أولياءه ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل

(١) سورة القلم: الآية ٢٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٤٥.
(٣) سورة الزمر: الآية ٧٥.
(٤) سورة الزمر: الآية ٧٢.

أنى أغرقه بمحض مشيئتى وإرادته بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين فى سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به ودفعه ورده فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم فى تلك المحال التى حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته الفاسقين والظالمين ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين ولا يركس فى الفتنة [1] ألا وقد أزاح سبحانه العلل وأقام الحجج ومكن من أسباب الهداية وأنه لا يضل إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين [2] الذى غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [3]

وقال عن أعدائه من اليهود:

﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [4]

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقى، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغى على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه.

مكر الله عز وجل

وأما المكر الذى وصف به نفسه فهو مجازاته للماكرين بأوليائه

---

(١) أى يعيد إلى الضلال والفتنة.
(٢) الرين: ما غطى القلب من شر ودنس.
(٣) سورة المطففين: الآية ١٤.
(٤) سورة النساء: الآية ١٥٥.

ورسله، فيقابل مكرهم السيىء بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء ومنه أحسن شيء لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه. وقوله لم يبق بينه وبينها إلا ذراع يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خذل بها في آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، لقد أورده مع صدقه فيه واخلاصة بغير سبب منه يقتضى افساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن ابليس: فإن الله سبحانه قال للملائكة:

﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (١).

فالرب تعالى كان يعلم ما فى قلب ابليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود ظهر ما فى قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما فى قلب عدوه من الكبر والغش والحسد فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره فحق، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته، وقوله:

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ (١)

إنما هو فى حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصى ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره به إلا القوم الخاسرون. والذى يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرة وفترة (٢).

وأمر آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره فيتخلى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة فيكون مكره بهم تخليه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمون من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون.

وأمر آخر: أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه، فيفتنون به، وذلك مكر.

فصل

شجرة الاخلاص

السنة شجرة والشهور فروعها والأيام أغصانها والساعات أوراقها والأنفاس ثمرها. فمن كانت أنفاسه فى طاعة فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت فى معصية فثمرته حنظل. وأنما يكون الجداد(٣) يوم المعاد، فعند الجداد يتبين حلو الثمار من مرها.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٩٩. (٢) أى فجأة.

(٣) أى قطف الثمر.

والاخلاص والتوحيد شجرة فى القلب فروعها الأعمال وثمرها طيب الحياة فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة. وكما أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فثمرة التوحيد والاخلاص فى الدنيا كذلك.

والشرك والكذب والرياء شجرة فى القلب ثمرها فى الدنيا الخوف والهم والغم وضيق الصدر وظلمة القلب، وثمرها فى الآخرة الزقوم والعذاب المقيم. وقد ذكر الله هاتين الشجرتين فى سورة إبراهيم.

فصل
مراتب السعادة

إذا بلغ العبد أعطى عهده الذى عهده إليه خالقه ومالكه.، فإذا أخذ عهده بقوة وقبول وعزم على تنفيذ ما فيه صلح للمراتب والمناصب التى يصلح لها الموفون بعهودهم، فإذا هز نفسه عند أخذ العهد وانتحاها (١) وقال قد أهلت لعهد ربى فمن أولى بقبوله وفهمه وتنفيذه منى؟ فحرص أولا على فهم عهده وتدبره وتعرفه وصايا سيده له، ثم وطن نفسه على امتثال ما فى عهده والعمل به وتنفيذه حسبا تضمنه عهده، فأبصر بقلبه حقيقة العهد وما تضمنه، فاستحدث همة أخرى وعزيمة غير العزيمة التى كان فيها وقت الصبا، قبل وصول العهد، فاستقال من ظلمة غرة الصبا والانقياد للعادة والمنشأ، وصبر على شرف الهمة وهتك ستر الظلمة إلى نور اليقين، فأدرك بقدر صبره وصدق اجتهاده ما وهبه الله له من فضله.

فأول مراتب سعادته أن تكون له أذن واعية، وقلب يعقل ما تعيه الأذن. فإذا سمع وعقل واستبانت له الجادة ورأى عليها تلك الأعلام،

---

(١) فى القاموس «انتحاه»: قصده. وانتحى الجمل: اعتمد فى سيره على أيسره. ونخا وانتخى بالخاء المعجمة: افتخر وتعظم، وفلاناً: مدحه. أهـ.
والظاهر أن الصواب هنا: وانتخاها. ويكون المعنى: أثارها وألهبها نشاطاً وعزيمة.

ورأى أكثر الناس منحرفين عنها يمينا وشمالا فلزمها ولم ينحرف مع المنحرفين الذين كان سبب انحرافهم عدم قبول العهد أوقبلوه بكره ولم يأخذوه بقوة ولا عزيمة ولا حدثوا أنفسهم بفهمه وتدبره والعمل بما فيه وتنفيذ وصاياه، بل عرض عليهم العهد ومعهم ضراوة الصبا ودين العادة وما ألفوا عليه الآباء والأمهات، فتلقوا العهد تلقى من هو مكتف بما وجد عليه آباءه وسلفه، وعادتهم لا تكفى من يجمع همه وقلبه على فهم العهد والعمل به، حتى كأن ذلك العهد أتاه وحده وقيل له تأمل ما فيه ثم اعمل بموجبه، فإذا لم يتلق عهده هذا التلقى أخلد إلى سيرة القرابة وما استمرت عليه عادة أهله وأصحابه وجيرانه وأهل بلده، فإن علت همته أخلد إلى ما عليه سلفه ومن تقدمه من غير التفات إلى تدبر العهد وفهمه فرضى لنفسه أن يكون دينه دين العادة، فإذا شامه الشيطان (١) ورأى هذا مبلغ همته وعزيمته، رماه بالعصبية والحمية للآباء وسلفه وزين له أن هذا هو الحق وما خالفه باطل، ومثل له الهدى فى صورة الضلال والضلال فى صورة الهدى، بتلك العصبية والحمية التى أسست على غير علم، فرضاه أن يكون مع عشيرته وقومه له ما لهم وعليه ما عليهم، فيخذل عن الهدى وولاه الله ما تولى، فلو جاءه كل هدى يخالف قومه وعشيرته لم يره إلا ضلالة. وإذا كانت همته أعلى من ذلك ونفسه أشرف وقدرة أعلى، أقبل على حفظ عهده وفهمه وتدبره، وعلم أن لصاحب العهد شأنا ليس كشأن غيره، فأخذ نفسه بمعرفته من نفس العهد، فوجده قد تعرف إليه وعرفه نفسه وصفاته وأسماءه وأفعاله وأحكامه، فعرف من ذلك العهد قيوما بنفسه مقيما لغيره غنيا عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه مستو على عرشه فوق جميع خلقه، يرى ويسمع ويرضى ويغضب ويحب ويبغض ويدبر أمر مملكته، وهو فوق عرشه متكلم آمرناه يرسل رسله إلى أقطار مملكته بكلامه الذى يسمعه

(١) أى خبر وقدر مبلغ همته.

من يشاء من خلقه، وأنه قائم بالقسط يجاز بالإحسان والاساءة، وأنه حليم غفور شكور جواد محسن موصوف بكل كمال منزه عن كل عيب ونقص وأنه لامثل له. ويشهد حكمته فى تدبير مملكته وكيف يقدر مقاديره بمشيئته غير مضادة لعدله وحكمته، وتظاهر عنده العقل والشرع والفطرة فصدق كل منها صاحبيه وفهم عن الله سبحانه ما وصف به نفسه فى كتابه من حقائق أسمائه التى بها نزل الكتاب وبها نطق ولها أثبت وحقق، وبها تعرف إلى عباده حتى أقرت به العقول وشهدت به الفطر.

فإذا عرف بقلبه وتيقن صفات صاحب العهد أشرقت أنوارها على قلبه فصارت له كالمعاينة، فرأى حينئذ تعلقها بالخلق والأمر وارتباطهما بها وسريان آثارها فى العالم الحسى والعالم الروحى، ورأى تصرفها فى الخلائق كيف عمت وخصت وقربت وأبعدت وأعطت ومنعت، فشاهد بقلبه مواقع عدله سبحانه وقسطه وفضله ورحمته، واجتمع له الايمان بلزوم حجته مع نفوذ أقضيته وكمال قدرته مع كمال عدله وحكمته ونهاية علوه على جميع خلقه مع احاطته ومعيته وعظمته وجلاله وكبريائه وبطشه وانتقامه مع رحمته وبره ولطفه وجوده وعفوه وحلمه. ورأى لزوم الحجة مع قهر المقادير التى لا خروج لمخلوق عنها. وكيف اصطحاب الصفات وتوافقها وشهادة بعضها لبعض، وانعطاف الحكمة التى هى نهاية وغاية المقادير التى هى أول وبداية. ورجوع فروعها إلى أصولها ومبادئها إلى غاياتها حتى كأنه مشاهد مبادىء الحكمة، وتأسيس القضايا على وفق الحكمة والعدل والمصلحة والرحمة والاحسان، لا تخرج قضية عن ذلك إلى انقضاء الأكوان وانفصال الأحكام يوم الفصل بين العباد وظهور عدله وحكمته وصدق رسله وما أخبرت به عنه لجميع الخليقة، انسها وجنها، مؤمنها وكافرها.

وحينئذ يتبين من صفات جلاله ونعوت كماله للخلق ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك، حتى أن أعرف خلقه به في الدنيا يثني عليه يومئذ من صفات كماله ونعوت جلاله ما لم يكن يحسنه في الدنيا، وكما يظهر ذلك لخلقه تظهر لهم الأسباب التي بها زاغ الزائغون وضل الضالون وانقطع المنقطعون، فيكون الفرق بين العلم يومئذ بحقائق الأسماء والصفات والعلم بها في الدنيا كالفرق بين العلم بالجنة والنار ومشاهدتها وأعظم من ذلك.

وكذلك يفهم من العهد كيف اقتضت أسماؤه وصفاته لوجود النبوة والشرائع وألا يترك خلقه سدى، وكيف اقتضت ما تضمنته من الأوامر والنواهي، وكيف اقتضت وقوع الثواب والعقاب والمعاد، وأن ذلك من موجبات أسمائه وصفاته بحيث ينزه عما زعم أعداؤه من انكار ذلك، ويرى شمول القدرة واحاطتها بجميع الكائنات حتى لا يشذ عنها مثقال ذرة، ويرى أنه لو كان معه اله آخر لفسد هذا العالم فكانت تفسد السموات والأرض ومن فيهن، وأنه سبحانه لو جاز عليه النوم أو الموت لتدكدك[1] هذا العالم بتأسره ولم يثبت طرفة عين. ويرى مع ذلك الاسلام والايمان اللذين تعبد الله بهما جميع عباده كيف انبعاثهما من الصفات المقدسة، وكيف اقتضيا الثواب والعقاب عاجلا وآجلا. ويرى مع ذلك أنه لا يستقيم قبول هذا العهد والتزامه لمن جحد صفاته وأنكر علوه على خلقه وتكلمه بكتبه وعهوده، كما لا يستقيم قبوله لمن أنكر حقيقة سمعه وبصره وحياته وإرادته وقدرته، وأن هؤلاء هم الذين ردوا شهده وأبوا قبوله، وأن من قبله منهم لم يقبله بجميع ما فيه، وبالله التوفيق.

---

(١) أي تهدم وانهار.

فصل
الجسد والروح

خلق بدن ابن آدم من الأرض وروحه من ملكوت السماء وقرن بينهما. فإذا أجاع بدنه وأسهره وأقامه فى الخدمة وجدت روحه خفة وراحة فتاقت إلى الموضع الذى خلقت منه، واشتاقت إلى عالمها العلوى. وإذا أشبعه ونعمه ونومه واشتغل بخدمته وراحته، أخلد البدن إلى الموضع الذى خلق منه فانجذبت الروح معه فصارت فى السجن، فلولا أنها ألفت السجن لاستغاثت من ألم مفارقتها وانقطاعها عن عالمها الذى خلقت منه كما يستغيث المعذب.

وبالجملة، فكلما خف البدن لطفت الروح وخفت وطلبت عالمها العلوى. وكلما ثقل وأخلد إلى الشهوات والراحة ثقلت الروح وهبطت من عالمها وصارت أرضية سفلية، فترى الرجل روحه فى الرفيق الأعلى وبدنه عندك، فيكون نائما على فراشه وروحه عند سدرة المنتهى تجول حول العرش، وآخر واقف فى الخدمة ببدنه وروحه فى السفل تجول حول السفليات. فإذا فارقت الروح البدن التحقت برفيقها الأعلى أو الأدنى، فعند الرفيق الأعلى كل قرة عين وكل نعيم وسرور وبهجة ولذة وحياة طيبة، عند الرفيق الأسفل كل هم وغم وضيق وحزن وحياة نكدة ومعيشة ضنك، قال تعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (١)

فذكره كلامه الذى أنزله على رسوله والاعراض عنه ترك تدبره والعمل به. والمعيشة الضنك، فأكثر ما جاء فى التفسير: أنها عذاب القبر، قاله

(١) سورة طه: الآية ١٢٤.

ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وابن عباس، وفيه حديث مرفوع .

وأصل الضنك فى اللغة : الضيق والشدة ، وكل ما ضاق فهو ضنك ، يقال : منزل ضنك وعيش ضنك ، فهذه المعيشة الضنك ، فى مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة . فإن النفس كلما وسعت عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكا ، وكلما ضيقت عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح . فضنك المعيشة فى الدنيا بموجب التقوى سعتها فى البرزخ والآخرة ، وسعة المعيشة فى الدنيا بحكم الهوى ضنكها فى البرزخ والآخرة . فآثر أحسن المعيشتين وأطيبها وأدومها ، وأشق البدن بنعيم الروح ولا تشق الروح بنعيم البدن ، فأن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم ، ونعيم البدن وشقاؤه أقصر وأهون ، والله المستعان .

ترك الذنوب أولا

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا فإنهم لا يقدرون على تركها ، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة . فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة ! فإن صعب عليهم ترك الذنوب فأجتهد أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وأنعامه واحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله ، فإن القلوب مفطورة على محبته . فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والاصرار عليها والاستقلال منها . وقد قال يحيى بن معاذ : «طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها » .

العارف يدعو الناس إلى الله من دنياهم فتسهل عليهم الاجابة ، والزاهد يدعوهم إلى الله بترك الدنيا فتشق عليهم الاجابة . فإن الفطام عن الشدى الذى ما عقل الانسان نفسه إلا وهو يرتضع منه ، شديد ،

ولكن تخير من المرضعات أزكاهن وأفضلهن، فإن للبن تأثيرا فى طبيعة المرتضع، ورضاع المرأة الحمقى يعود بحمق الولد. وأنفع الرضاعة ما كان من المجاعة، فإن قويت على مرارة الفطام وألا فارتضع بقدر فإن من البشم (١) ما يقتل.

فصل

ثلاث فوائد

* بين رعاية الحقوق مع الضر ورعايتها مع العافية بون بعيد.

* ان عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه (٢):

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣).

* ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، انما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال وتختلف عليه الأحوال وقلبه واقف فى الخدمة غير متخلف بما يقدر عليه.

فصل

معرفة الله

معرفة الله سبحانه نوعان، الأول: معرفة اقرار وهى التى اشترك فيها الناس البر والفاجر والمطيع والعاصى. والثانى: معرفة توجب الحياء منه والمحبة له وتعلق القلب به والشوق إلى لقائه وخشيته والانابة إليه

(١) البشم: التخمة.
(٢) قرن الإنسان: هو الذى يكافئه فى المقدرة والشجاعة.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٤٥.

والأنس به والفرار من الخلق إليه. وهذه هى المعرفة الخاصة الجارية على لسان القوم وتفاوتهم فيها لا يحصيه إلا الذى عرفهم بنفسه وكشف لقلوبهم من معرفته ما أخفاه عن سواهم وكل أشار إلى هذه المعرفة بحسب مقامه وما كشف له منها، وقد قال أعرف الخلق به(١): «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، وأخبر أنه سبحانه يفتح عليه يوم القيامة من محامده بما لا يحسنه الآن.

ولهذه المعرفة بابان واسعان:

الباب الأول: التفكر والتأمل فى آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله.

والباب الثانى: التفكر فى آياته المشهودة وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بالقسط على خلقه. وجماع ذلك: الفقه فى معانى أسمائه الحسنى وجلالها وكمالها وتفرده بذلك وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيها فى أوامره ونواهيه، فقيها فى قضائه وقدره، فقيها فى أسمائه وصفاته، فقيها فى الحكم الدينى الشرعى والحكم الكونى القدرى، و«وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

فصل

أفضل الكسب وشره

الدراهم أربعة: درهم اكتسب بطاعة الله وأخرج فى حق الله فذاك خير الدراهم، ودرهم اكتسب بمعصية الله وأخرج فى معصية الله فذاك شر الدراهم، ودرهم أكتسب بأذى مسلم وأخرج فى أذى مسلم فهو كذلك، ودرهم اكتسب بمباح وأنفق فى شهوة مباحة فذاك لا له ولا عليه.

---

(١) أى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه أصول الدراهم، ويتفرع عليها دراهم أخر: منها درهم اكتسب بحق وأنفق في باطل، ودرهم اكتسب بباطل وأنفق في حق فانفاقه كفارته، ودرهم اكتسب من شبهة فكفارته أن ينفق في طاعة. وكما يتعلق الثواب والعقاب والمدح والذم باخراج الدرهم فكذلك يتعلق باكتسابه. وكذلك يسأل عن مستخرجه ومصروفه من أين اكتسبه وفيما أنفقه.

فصل

مواساة المؤمنين

المواساة للمؤمنين أنواع: مواساة بالمال، ومواساة بالجاه، ومواساة بالبدن والخدمة، ومواساة بالنصيحة والارشاد، ومواساة بالدعاء والاستغفار لهم، ومواساة بالتوجع لهم. وعلى قدر الايمان تكون هذه المواساة. فكلما ضعف الإيمان ضعفت المواساة، وكلما قوى قويت. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس مواصاة لأصحابه بذلك كله، فلأتباعه من المواساة بحسب اتباعهم له.

ودخلوا على بشر الحافي في يوم شديد البرد وقد تجرد وهو ينتفض، فقالوا: ما هذا يا أبا نصر؟ فقال: ذكرت الفقراء وبردهم وليس لي ما أواسيهم، فأحببت أن أواسيهم في بردهم.

فصل

الجهل يوجب التعب

الجهل بالطريق وآفاتها والمقصود يوجب التعب الكثير مع الفائدة القليلة، فإن صاحبه إما أن يجتهد في نافلة مع إضاعة الفرض أوفي عمل بالجوارح لم يواطئه عمل القلب، أوعمل بالباطن والظاهر لم يتقيد

بالاقتداء، أوهمة إلى عمل لم ترق بصاحبها إلى ملاحظة المقصود، أوعمل لم يحترز من آفاته المفسدة له حال العمل وبعده، أوعمل غفل فيه عن مشاهدة المنة فلم يتجرد عن مشاركة النفس فيه، أوعمل لم يشهد تقصيره فيه فيقوم بعده فى مقام الاعتذار منه، أوعمل لم يوفه حقه من النصح والاحسان وهو يظن أنه وفاه، فهذا كله مما ينقص الثمرة مع كثرة التعب، والله الموفق.

فصل

الرحلة إلى الله وما يعترضها

إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته عرضت له الخوادع والقواطع، فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس. فإن وقف معها انقطع وإن رفضها ولم يقف معها وصدق فى طلبه ابتلى بوطء عقبه (١) وتقبيل يده والتوسعة له فى المجلس والاشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك. فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلى بالكرامات والكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلى بالتجريد والتخلى ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا. فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه وسار ناظرا إلى مراد الله منه وما يحبه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح تنعم أوتألم، أخرجته إلى الناس أوعزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الامكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على مرضاة سيده وأمره. فهذا هو العبد الذى قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة، وبالله التوفيق.

---

(١) أى بالسير خلفه.

فصل
أنواع النعم

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيدا يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر. ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصره بالطرق التى تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها. وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التى هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابيا دخل على الرشيد، فقال: أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التى أنت فيها بادامة شكرها، وحقق لك النعم التى ترجوها بحسن الظن به وداوم طاعته، وعرفك النعم التى أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها. فأعجبه ذلك منه وقال: ما أحسن تقسيمه.

قاعدة جليلة
مبدأ كل علم وعمل

مبدأ كل علم نظرى وعمل اختيارى هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الارادات تقتضى وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطى العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها والهها صاعدة إليه دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه واعراضه عنه كل ضلال وشقاء. فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر اثبات عين فكرته فى آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته وانزاله اياه حاضرا معه مشاهدا له ناظرا إليه

رقيبا عليه مطلعا على خواطره وارادته وهمه. فحينئذ يستحيي منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله أويرى فى نفسه خاطرا يمقته عليه.

فمتى أنزل ربه هذه المنزلة منه رفعه وقربه منه، وأكرمه واجتباه ووالاه، وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدناءات والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة. كما أنه كلما بعد منه وأعرض عنه قرب من الأوساخ والدناءات والأقذار، وينقطع عن جميع الكمالات ويتصل بجميع النقائص.

فالإنسان خير المخلوقات إذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه وعمل بمرضاته وآثر على هواه. وشر المخلوقات إذا تباعد عنه ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته. فمتى اختار التقرب إليه وآثره على نفسه وأهواه فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكم رشده على غيه وهداه على هواه. ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده.

الخطرات والوساوس

وأعلم أن الخطرات والوساوس تؤدى متعلقاتها إلى الفكر فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الارادة فتأخذها الارادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصيرعادة، فردها إلى مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يعط الانسان أمانة الخواطر ولا القوة على قطعها فإنها تهجم عليه هجوم النفس، الا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه كما قال الصحابة: «يا رسول الله، إن أحدنا يجد فى نفسه ما لأن

يحترق حتى يصير حمة[1] أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: أوقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الايمان»[2]. وفى لفظ: «الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة» وفيه قولان، أحدهما: أن رده وكراهته صريح الايمان. والثانى: أن وجوده والقاء الشيطان له فى النفس صريح الايمان، فإنه انما ألقاه فى النفس طلبا لمعارضة الايمان وازالته به.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التى لا تسكن ولابد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حب طحنته، وإن وضع فيها تراب أوحصى طحنته، فالأفكار والخواطر التى تجول فى النفس هى بمنزلة الحب الذى يوضع فى الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لابد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبنا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه.

فصل
القلب لا يخلو من الأفكار

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرا جوالا فاستخدم الارادة فتساعدت هى والفكر على استخدام الجوارح فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب[3] بالتمنى والشهوة وتوجهه إلى جهة المراد. ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من اصلاح الأفكار، واصلاح الأفكار أسهل من اصلاح الارادات، واصلاح الارادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد. فأنفع الدواء

(١) الحمة: الفحمة، وجمعها حمم.

(٢) أخرجه مسلم فى باب الإيمان، وأبو داود فى كتاب الأدب.

(٣) يقصد بالقلب: الفؤاد.

أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون مالا يعنيك ، فالفكر فيما لا يعنى باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن انفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه ، فالفكر والخواطر والارادة والهمة أحق شيء باصلاحه من نفسك ، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التى لا تبتعد بها أوتقرب من الهك ومعبودك الذى لا سعادة لك الا فى قربه ورضاه عنك ، وكل الشقاء فى بعدك عنه وسخطه عليك ، ومن كان فى خواطره ومجالات فكره دنيئا خسيسا لم يكن فى سائر أمره إلا كذلك .

وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وارادتك فإنه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه ، ويلقى إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة ، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك ، وأنت الذى أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك . فمثالك معه مثال صاحب رحى يطحن فيها جيد الحبوب ، فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه فى طاحونته ، فإن طرده ولم يمكنه من القاء مامعه فى الطاحون استمر على طحن ما ينفعه ، وان مكنه من القاء ذلك فى الطاحون أفسد ما فيها من الحب وخرج الطحين كله فاسدا . والذى يلقيه الشيطان فى النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل فى الوجود لو كان على خلاف ذلك ، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، أوفيما يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام أوفى خيالات وهمية لا حقيقة لها أوفى باطل أوفيما لا سبيل إلى ادراكه من أنواع ما طوى عنه علمه فيلقيه فى تلك الخواطر التى لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها على نهاية فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه .

وجماع اصلاح ذلك : أن تشغل فكرك فى باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه ، وفى الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار . وفى آفات الأعمال وطرق التحرز منها . وفى باب

الارادات والعزوم أن تشغل نفسك بارادة ماينفعك ارادته وطرح ارادة مايضرك ارادته. وعند العارفين أن تمنى الخيانة واشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة، ولا سيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها، فإن تمنيها يشغل القلب ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده.

وأنت تجد فى الشاهد أن الملك من البشر إذا كان فى بعض حاشيته وخدمه من هو متمن لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلىء منها، وهو مع ذلك فى خدمته وقضاء أشغاله، فإذا أطلع على سره وقصده مقته غاية المقت وأبغضه وقابله بما يستحقه، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جنى بعض الجنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطو على تمنى الخيانة ومحبتها والحرص عليها، فالأول يتركها عجزا واشتغالا بما هو فيه وقلبه ممتلىء بها، والثانى يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه اضمار الخيانة ولا الاصرار عليها، فهذا أحسن حالا وأسلم عاقبة من الأول.

وبالجملة، فالقلب لا يخلو قط من الفكر إما فى واجب آخرته ومصالحها، وإما فى مصالح دنياه ومعاشه، وإما فى الوساوس والأمانى الباطلة والمقدرات المفروضة. وقد تقدم أن النفس مثلها كمثل رحى تدور بما يلقى فيها، فإن ألقيت فيها حبا دارت به وأن ألقيت فيها زجاجا وحصى وبعرا دارت به، والله سبحانه هو قيم [1] تلك الرحى ومالكها ومصرفها وقد أقام لها ملكا يلقى فيها ماينفعها فتدور به، وشيطانا يلقى فيها مايضرها فتدور به، فالملك يلم بها مرة والشيطان يلم بها مرة، فالحب الذى يلقيه الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، والحب الذى يلقيه الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد. والطحين على قدر الحب، وصاحب الحب المضر لا يتمكن من القائه إلا إذا وجد الرحى فارغة من

(١) أى المسؤول عنها.

الحب وقيمها قد أهملها وأعرض عنها، فحينئذ يبادر إلى القاء ما معه فيها.

وبالجملة، فقيم الرحى إذا تخلى عنها وعن اصلاحها والقاء الحب النافع فيها وجد العدو السبيل إلى إفسادها وادارتها بما معه. وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك، وفسادها كله فى الاشتغال بما لا يعنيك، وما أحسن ما قال بعض العقلاء: لما وجدت أنواع الذخائر منصوبة غرضا للمتألف، ورأيت الزوال حاكما عليها مدركا لها، انصرفت عن جميعها إلى ما لا ينازع فيه ذو الحجا (العقل) أنه أنفع الذخائر وأفضل المكاسب وأربح المتاجر، والله المستعان.

شرف النفس

قال شقيق بن ابراهيم (١): اغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم فى العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وادبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، واقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلت: وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذى هو أدنى بالذى هو خير. والا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون. فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته وشرف النفس ونبلها وكبرها. وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها، قال تعالى:

---

(١) هو شقيق بن إبراهيم بن على الأزدى، البلخى «أبو على». من كبار مشايخ الطرق الصوفية فى خراسان. ولعله أول من تكلم فى علوم الأحوال (الصوفية) بكورخواسان. أخذ الفقه عن أبى حنيفة وغيره. من أقواله: «إذا صار الفقير يخاف من الغنى كما يخاف من الفقر فقد تم زهده». وقد كان إلى ذلك مجاهداً استشهد فى غزوة كولان (بما وراء النهر) سنة (١٩٤ هـ= ٨١٠م).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (١)

أى أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغرها وحقرها بمعاصى الله.

فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار. فالنفس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة، لأنها أكبر من ذلك وأجل. والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك. فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ (٢)

أى على ما يشاكله ويناسبه فهو يعمل على طريقته التى تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل انسان يجرى على طريقته ومذهبه وعاداته التى ألفها وجبل عليها. فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصى والاعراض عن المنعم. والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم ومحبته والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه واجلاله.

فصل

لا يعرف خالقه من لا يعرف نفسه

من لم يعرف نفسه كيف يعرف خالقه؟ فاعلم أن الله تعالى خلق فى صدرك بيتا وهو القلب، ووضع فى صدره عرشا لمعرفته يستوى عليه المثل الأعلى فهو مستو على عرشه بذاته بائن من خلقه. والمثل الأعلى من معرفته ومحبته وتوحيده مستو على سرير القلب وعلى السرير بساط من

---

(١) سورة الشمس: الآية ٩ ــ ١٠. (٢) سورة الإسراء: الآية ٨٤.

الرضا. ووضع عن يمينه وشماله مرافق شرائعه وأوامره وفتح إليه بابا من جنة رحمته والأنس به والشوق إلى لقائه، وأمطره من وابل كلامه ما أنبت فيه أصناف الرياحين والأشجار المثمرة من أنواع الطاعات والتهليل والتسبيح والتحميد والتقديس، وجعل فى وسط البستان شجرة معرفة، فهى تؤتى أكلها كل حين باذن ربها من المحبة والانابة والخشية والفرح به والابتهاج بقربه. وأجرى إلى تلك الشجرة مايسقيها من تدبر كلامه وفهمه والعمل بوصاياه. وعلق فى ذلك البيت قنديلا أسرجه بضياء معرفته والايمان به وتوحيده. فهو يستمد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار. ثم أحاط عليه حائطا يمنعه من دخول الآفات والمفسدين ومن يؤذى البستان فلا يلحقه أذاهم. وأقام عليه حرسا من الملائكة يحفظونه فى يقظته ومنامه، ثم أعلم صاحب البيت والبستان بالساكن فيه، فهو دائما همه اصلاح السكن ولم شعثه ليرضاه الساكن منزلا. وإذا أحس بأدنى شعث فى السكن بادر إلى اصلاحه ولمه خشية انتقال الساكن منه، فنعم الساكن ونعم المسكن.

فسبحان الله رب العالمين، كم بين هذا البيت وبيت قد استولى عليه الخراب وصار مأوى للحشرات والهوام ومحلا لالقاء الأنتان والقاذورات فيه. فمن أراد التخلى وقضاء الحاجة وجد خربة لا ساكن فيها ولا حافظ لها وهى معدة لقضاء الحاجة مظلمة الأرجاء منتنة الرائحة قد عمها الخراب وملأتها القاذورات، فلا يأنس بها ولا ينزل فيها إلا من يناسبه سكناها من الحشرات والديدان والهوام. الشيطان جالس على سريرها وعلى السرير بساط من الجهل وتخفق فيه الأهواء وعن يمينه وشماله مرافق الشهوات. وقد فتح إليه باب من حقل الخذلان والوحشة والركون إلى الدنيا والطمأنينة بها والزهد فى الآخرة، وأمطر من وابل الجهل والهوى والشرك والبدع ما أثبت فيه أصناف الشوك والحنظل

والأشجار المثمرة بأنواع المعاصى والمخالفات من الزوائد والتنديبات والنوادر والهزليات والمضحكات والأشعار الغزليات، والخمريات التى تهيج على ارتكاب المحرمات وتزهد فى الطاعات. وجعل فى وسط الحقل شجرة الجهل به والاعراض عنه، فهى تؤتى أكلها كل حين من الفسوق والمعاصى واللهو واللعب والمجون والذهاب مع كل ريح واتباع كل شهوة. ومن ثمرها الهموم والغموم والأحزان والآلام. ولكنها متوارية باشتغال النفس بلهوها ولعبها، فإذا أفاقت من سكرها أحضرت كل هم وغم وحزن وقلق ومعيشة ضنك، واجرى إلى تلك الشجرة ما يسقيها من اتباع الهوى وطول الأمل والغرور.

ثم ترك ذلك البيت وظلماته وخراب حيطانه بحيث لا يمنع منه مفسد ولا حيوان ولا مؤذ ولا قذر، فسبحان خالق هذا البيت وذلك البيت، فمن عرف بيته وقدر ما فيه من الكنوز والذخائر والآلات انتفع بحياته ونفسه، ومن جهل ذلك جهل نفسه وأضاع سعادته، وبالله التوفيق.

سئل سهل التسترى: الرجل يأكل فى اليوم أكلة؟ قال: أكل الصديقين، قيل له: فاكلتين؟ قال: أكل المؤمنين، قيل له: فثلاث أكلات؟ فقال: قل لأهله يبنوا له معلفا.

قال الأسود بن سالم: ركعتين أصليهما لله أحب إلى من الجنة بما فيها. فقيل له: هذا خطأ، فقال: دعونا من كلامكم، الجنة رضا نفسي والركعتان رضا ربى، ورضا ربى أحب إلى من رضا نفسي.

* العارف في الأرض ريحانة من رياحين الجنة، إذا شمها المريد(1) اشتاقت نفسه إلى الجنة.

* قلب المحب موضوع بين جلال محبوبه وجماله، فإذا لاحظ جلاله هابه وعظمه، وإذا لاحظ جماله أحبه واشتاق إليه.

---

(1) كلمة وصف للصوفى.

فائدة

مراتب معرفة الله

من الناس من يعرف الله بالجود والأفضال والاحسان، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمن والبر واللطف ومنهم من يعرفه بالقهر والملك، ومنهم من يعرفه باجابة دعوته واغاثة لهفته وقضاء حاجته.

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه، فإنه يعرف ربا قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال، منزه عن المثال، بریء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن وكل وصف كمال، فعال لما يريد، فوق كل شيء ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء، آمر ناه متكلم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين وأقدر القادرين وأحكم الحاكمين. فالقرآن أنزل لتعريف عباده به وبصراطه الموصل إليه وبحال السالكين بعد الوصول إليه.

فائدة

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

من الآفات الخفية العامة أن يكون العبد فى نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم لجهله أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتى إذا ضاق ذرعا بتلك النعمة وسخطها وتبرم بها واستحكم ملله لها سلبه الله إياها. فإذا انتقل إلى ما طلبه ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه، اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان

فيه ، فإذا أراد الله بعبده خيرا ورشدا أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه ، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته عاجز عنها ، مفوض إلى الله طالب منه حسن اختياره له .

وليس على العبد أضر من ملله لنعم الله ، فإنه لايراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها ، بل يسخطها ويشكوها ويعدها مصيبة . هذا وهى من أعظم نعم الله عليه ، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه ، وهم مجتهدون فى دفعها وردها جهلا وظلما. فكم سعت إلى أحدهم من نعمة وهو ساع فى ردها بجهده ، وكم وصلت إليه وهو ساع فى دفعها وزوالها بظلمه وجهله ، قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢)

فليس للنعم أعدى من نفس العبد ، فهو مع عدوه ظهير على نفسه ، فعدوه يطرح النار فى نعمه وهو ينفخ فيها ، فهو الذى مكنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ ، فإذا اشتد ضرامها استغاث من الحريق وكان غايته معاتبة الأقدار:

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فصل

جمال الله عز وجل

من أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال ، وهى معرفة

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٣ .

(٢) سورة الرعد: الآية ١١ .

خواص الخلق، وكلهم عرفه بصفة من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله وجلاله وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، ولو فرضت الخلق كلهم على أجملهم صورة وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الرب سبحانه لكان أقل من نسبة سراج ضعيف إلى قرص الشمس، ويكفى في جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحانه (١) ما انتهى إليه بصره من خلقه. ويكفى في جماله أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال.

ويكفى في جماله أنه له العزة جميعاً والقوة جميعاً والجود كله والإحسان كله والعلم كله والفضل كله، ولنور وجهه أشرقت الظلمات كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف (٢): «أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة».

وقال عبد الله بن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء لفصل القضاء تشرق الأرض بنوره.

ومن أسمائه الحسنى «الجميل». وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: «ان الله جميل يحب الجمال» (٣).

وجماله سبحانه على أربع مراتب: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء. فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها صفات كمال، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة وعدل ورحمة. وأما جمال الذات وما هو عليه فأمر لا يدركه سواه ولا يعلمه غيره، وليس عند

---

(١) أى أنواره.

(٢) لمزيد من الاطلاع على قصة دعاء الطائف راجع مختصر سيرة ابن هشام، ص ٨١ ــ ٨٢.

(٣) رواه مسلم، وابن ماجة، وأحمد بن حنبل.

المخلوقين منه إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده ، فان ذلك الجمال مصون عن الأغيار محجوب بستر الرداء والإزار كما قال رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عنه : «الكبرياء ردائى والعظمة ازارى» . ولما كانت الكبرياء أعظم وأوسع كانت أحق باسم الرداء ، فانه سبحانه الكبير المتعال فهو سبحانه العلى العظيم .

قال ابن عباس : حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال ، فما ظنك بجمال حجب بأوصاف الكمال وستر بنعوت العظمة والجلال .

ومن هذا المعنى يفهم بعض معانى جمال ذاته ، فان العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات ، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات . فإذا شاهد شيئاً من جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات .

ومن هنا يتبين أنه سبحانه له الحمد كله وأن أحداً من خلقه لا يحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وأنه يستحق أن يعبد لذاته ويحب لذاته ويشكر لذاته ، وأنه سبحانه يحب نفسه ويثنى على نفسه ويحمد نفسه ، وأن محبته لنفسه وحمده لنفسه وثناءه على نفسه وتوحيده لنفسه هو فى الحقيقة الحمد والثناء والحب والتوحيد ، فهو سبحانه كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى به عليه خلقه ، وهو سبحانه كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله ، فكل أفعاله حسن محبوب وإن كان فى مفعولاته (مخلوقاته) ما يبغضه ويكرهه ، فليس فى أفعاله ما هو مكروه مسخوط ، وليس فى الوجود ما يحب لذاته ويحمد لذاته إلا هو سبحانه ، وكل ما يحب سواه فإن كانت محبته تابعة لمحبته سبحانه بحيث يحب لأجله فمحبته صحيحة وإلا فهى محبة باطلة ، وهذا هو حقيقة الالهية ، فإن الإله الحق هو الذى يحب لذاته ويحمد لذاته . فكيف إذا انضاف إلى ذلك إحسانه وانعامه وحلمه وتجاوزه وعفوه وبره ورحمته ؟ .

فعلى العبد أن يعلم أنه لا إله إلا الله فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنه لا محسن على الحقيقة بأصناف النعم الظاهرة والباطنة إلا هو فيحبه لإحسانه وانعامه ويحمده على ذلك فيحبه من الوجهين جميعاً. وكما أنه ليس كمثله شيء فليس كمحبته محبة. والمحبة مع الخضوع هي العبودية التي خلق الخلق لأجلها، فانها غاية الحب بغاية الذل، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه. والاشراك به في هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ولا يقبل لصاحبه عملاً.

وحمده يتضمن أصلين: الاخبار بمحامده وصفات كماله، والمحبة له عليها. فمن أخبر بمحاسن غيره من غير محبة له لم يكن حامداً. ومن أحبه من غير اخبار بمحاسنه لم يكن حامداً حتى يجمع الأمرين، وهو سبحانه يحمد نفسه بنفسه، ويحمد نفسه بما يجريه على السنة الحامدين له من ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، فهو الحامد لنفسه بهذا وهذا، فإن حمدهم له بمشيئته واذنه وتكوينه، فإنه هو الذي جعل الحامد حامداً والمسلم مسلماً والمصلي مصلياً والتائب تائباً، فمنه ابتدأت النعم وإليه انتهت فابتدأت بحمده وانتهت إلى حمده، وهو الذي ألهم عبده التوبة وفرح بها أعظم فرح، وهي من فضله وجوده. وألهم عبده الطاعة وأعانه عليها ثم أثابه عليها وهي من فضله وجوده وهو سبحانه غني عن كل ما سواه بكل وجه، وما سواه فقير إليه بكل وجه، والعبد مفتقر إليه لذاته في الأسباب والغايات، فان ما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع.

فصل

الله جميل يحب الجمال

وقوله في الحديث: «إن الله جميل يحب الجمال» يتناول جمال الثياب المسئول عنه في نفس الحديث. ويدخل فيه بطريق العموم

الجمال من كل شيء كما في الحديث الآخر: «إن الله نظيف يحب النظافة». وفي الصحيح: «إن الله طيب لايقبل إلا طيباً». وفي السنن: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده». وفيها عن أبي الأحوص الجشمي، قال: «رآني النبي صلى الله عليه وسلم وعليّ أطمار(١)، فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاء، قال: فلتر نعمته وكرامته عليك».

فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فانه من الجمال الذى يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها. ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباساً وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم فقال:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ (٢)،

وقال فى أهل الجنة:

﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ (٣)،

فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير، وهو سبحانه كما يحب الجمال فى الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله. ولكن ضل فى هذا الموضوع فريقان: فريق قالوا كل ما خلقه جميل فهو يحب كل ما خلقه ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض

---

(١) الأطمار: الثياب البالية. (٢) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٣) سورة الإنسان: الآيات ١١ــ١٢.

منه شيئاً، قالوا: ومن رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة. وأنشد منشدهم:

وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوى الوجود مليح

واحتجوا بقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (٣)

والعارف عندهم هو الذى يصرح باطلاق الجمال ولا يرى فى الوجود قبيحاً. وهؤلاء قد عدمت الغيرة لله من قلوبهم والبغض فى الله والمعاداة فيه وانكار المنكر والجهاد فى سبيله وإقامة حدوده! ويرى جمال الصور من الذكور والاناث من الجمال الذى يحبه الله، فتعبدون بفسقهم وربما غلا بعضهم حتى يزعم أن معبوده يظهر فى تلك الصورة ويحل فيها. وأن كان اتحادياً قال هى مظهر من مظاهر الحق ويسميها المظاهر الجمالية.

فصل
أنواع الجمال

وقابلهم الفريق الثانى فقالوا: قد ذم الله سبحانه جمال الصور وتمام القامة والخلقة، فقال عن المنافقين:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (٤)

---

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٣) سورة الملك: الآية ٣.

(٤) سورة المنافقون: الآية ٤.

وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ (١)،

أى أموالاً ومناظر. قال الحسن: هو الصور. وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، قالوا: ومعلوم أنه لم ينف نظر الإدراك وإنما نفى نظر المحبة. قالوا: وقد حرم علينا لباس الحرير والذهب وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا، وقال:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ (٢)،

وفى الحديث: «البذاذة من الإيمان»، وقد ذم الله المسرفين. والسرف كما يكون فى الطعام والشراب يكون فى اللباس.

وفصل النزاع أن يقال: الجمال فى الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود. وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير فى الحرب والخيلاء فيه. فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه. والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه. فإن كثيراً من النفوس ليس لها همة فى سوى ذلك. وأما ما لا يحمد ولا يذم هو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين.

والمقصود أن هذا الحديث الشريف مشتمل على أصلين عظيمين: فأوله معرفة، وآخره سلوك. فيعرف الله سبحانه بالجمال الذى لا يماثله

---

(١) سورة مريم: الآية ٧٤.　　(٢) سورة طه: الآية ١٣١.

فيه شيء ، ويعبد بالجمال الذى يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق . فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالأخلاص والمحبة والإنابة والتوكل ، وجوارحه بالطاعة ، وبدنه بإظهار نعمه عليه فى لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة والختان وتقليم الأظفار، فيعرفه بصفات الجمال ويتعرف إليه بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة ، فيعرفه بالجمال الذى هو وصفه ، ويعبده بالجمال الذى هو شرعه ودينه ، فجمع الحديث قاعدتين: المعرفة والسلوك .

فصل

صدق العزيمة والفعل

ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه فى جميع أموره مع صدق العزيمة ، فيصدقه فى عزمه وفى فعله ، قال تعالى:

﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (١) ،

فسعادته فى صدق العزيمة وصدق الفعل ، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم . فإذا صدقت عزيمته بقى عليه صدق الفعل ، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه ، وإلا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه ، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة ، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله فى جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره . وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الأخلاق وصدق التوكل ، فأصدق الناس من صح اخلاصه وتوكله .

---

(١) سورة محمد: الآية ٢١ .

فائدة جليلة القدر

إرادة العبد

رب ذو إرادة أمر عبداً ذا إرادة، فإن وفقه وأراد من نفسه أن يعينه ويلهمه فعل ما أمر به، وإن خذله وخلاه وإرادته ونفسه، وهو من هذه الحيثية لا يختار إلا ما تهواه نفسه وطبعه، فهو من حيث هو إنسان لا يريد إلا ذلك. ولذلك ذمه الله فى كتابه من هذه الحيثية ولم يمدحه إلا بأمر زائد على تلك الحيثية، وهو كونه مسلماً ومؤمناً وصابراً ومحسناً وشكوراً وتقياً وبراً، ونحو ذلك. وهذا أمر زائد على مجرد كونه إنساناً وإرادته صالحة، ولكن لا يكفى مجرد صلاحيتها إن لم تؤيد بقدر زائد على ذلك وهو التوفيق، كما أنه لا يكفى فى الرؤية مجرد صلاحية العين للإدراك إن لم يحصل سبب آخر من النور المنفصل عنها.

فصل

وقار الله

من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم والتوقير لك من الناس وقلبك خال من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك فى حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ (١)،

أى لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة. ومنه قوله تعالى: (وتوقروه)، قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرونه؟ وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة. وقال ابن عباس: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة. وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

(١) سورة نوح: الآية ١٣.

وهـذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عـظـمته وحدوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحيـاء منـه بحسب وقاره فى القلب. ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقـار الله فـى قـلـب أحـدكم أن يذكره عندما يستحى من ذكره، فيقرن اسمه به كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومـن وقـاره الا تعـــدل بـه شيئاً من خلقه، لا فى اللفظ، بحيث تـقـول: والله وحيـاتـك، ما لى إلا الله وأنت وما شاء الله وشئت، ولا فـى الحـب والـتـعظيم والإجلال، ولا فى الطاعة، فتطيع المخلوق فى أمره ونهـيه كما تطيع الله، بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا فى الخوف والرجـاء. وبجعله أهون الناظرين إليه، ولا يستهين بحقه ويقول: هـو مبـنـى عـلـى المسـامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عـلـيـه، ولا يكون الله ورسوله فى حد وناحية، والناس فى ناحية وحد، فـيـكون فى الحد والشق الذى فيه الناس دون الحد والشق الذى فيه الله ورسولـه، ولا يـعطى المخلوق فى مخاطبته قلبه ولبه ويعطى الله فى خدمته بـدنـه ولـسـانـه دون قـلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه.

فـهـذا كـله من عدم وقار الله فى القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقى له فى قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قـلـوبـهـم، وإن وقـروه مخـافـة شره فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم. ومـن وقـار الله أن يـسـتـحـى من إطلاعه على سره وضميره فيرى فيه ما يـكـره. ومن وقاره أن يستحى منه فى الخلوة أعظم مما يستحى من أكابر الناس.

والمـقـصـود أن من لا يـوقـر الله وكـلامـه وما آتاه من العلم والحكمة كـيـف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟! القرآن والعلم وكلام الرسول

صلى الله عليه وسلم صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع موقظ قائم بك، فلا ما ورد إليك وعظك! ولا ما قام بك نصحك! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك! فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً، وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه. فالضرب لم يؤثر فيه زجراً وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه.

من سمع بالمثلات والعقوبات والآيات في حق غيره ليس كمن رآها عياناً في غيره، فكيف بمن وجدها في نفسه؟

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١)،

فآياته في الآفاق مسموعة معلومة، وآياته في النفس مشهودة مرئية، فعياذا بالله من الخذلان. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (٢)،

وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (٣).

والعاقل المؤيد بالتوفيق يعتبر بدون هذا ويتمم نقائص خلقته بفضائل أخلاقه وأعماله، فكلما أمتحى (٤) من جثمانه أثر زاد إيمانه أثر، وكلما نقص من قوى بدنه زاد في قوة إيمانه ويقينه ورغبته في الله والدار الآخرة، وان لم يكن هكذا فالموت خير له، لأنه يقف به على حد معين من الألم والفساد، بخلاف العيوب والنقائص مع طول العمر، فانها

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.
(٢) سورة يونس: الآيات ٩٦ــ٩٧.
(٣) سورة الأنعام: الآية ١١١.
(٤) امتحى: أي ذهب أثره وزال.

زيادة في ألمه وهمه وغمه وحسرته ، وإنما حسن طول العمر ونفع ليحصل التذكر والاستدراك واغتنام الفرص والتوبة النصوح كما قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ (١)

فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه وتدارك فارطه واغتنام بقية أنفاسه فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم ، وإلا فلا خير له في حياته ، فإن العبد على جناح سفر إما إلى الجنة وإما إلى النار. فإذا طال عمره وحسن عمله كان طول سفره زيادة له في حصول النعيم واللذة ، فانه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل ، وإذا طال عمره وساء عمله كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل . فالمسافر إما صاعد وإما نازل ، وفي الحديث المرفوع : « خيركم من طال عمره وحسن عمله وشركم من طال عمره وقبح عمله » (٢) .

فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته جعله عمارة لقلبه وروحه ، وكلما نقص شيء من دنياه جعله زيادة في آخرته ، وكلما منع شيئاً من لذات دنياه جعله زيادة في لذات آخرته ، وكلما ناله هم أو حزن أو غم جعله في أفراح آخرته . فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته ان زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده ، كان رحمة به وخيراً له وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة أو ترك واجب ظاهر أو باطن ، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة ، وبالله التوفيق .

---

(١) سورة فاطر: الآية ٣٧.

(٢) رواه الترمذي والدارمي وابن حنبل.

فائدة

الحياة طريق مسافر

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط رحالهم إلا فى الجنة أو النار. والعاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير.

فائدة

المشاهدة

عند العارفين أن الاشتغال بالمشاهدة عن البر[1] فى السير فى السر وقوف، لأنه فى زمن المشاهدة لو كان صاحب عمل ظاهر أو باطن أو ازدياد من معرفة وإيمان مفصل كان أولى به، فإن اللطيفة الإنسانية تحشر على صورة عملها ومعرفتها وهمتها وإرادتها، والبدن يحشر على صورة عمله الحسن أو القبيح. وإذا انتقلت من هذه الدار شاهدت حقيقة ذلك. وعلى قدر قرب قلبك من الله تبعد من الأنس بالناس ومساكنتهم، وعلى قدر صيانتك لسرك وإرادتك يكون حفظه. وملاك ذلك صحة التوحيد ثم صحة العلم بالطريق ثم صحة الإرادة ثم صحة العمل. والحذر كل الحذر من قصد الناس لك وإقبالهم عليك وأن يعثروا على موضع غرضك، فإنها الآفة العظمى.

---

(١) هكذا الأصل، ولعله تصحيف عن الجد.

فائـدة

مداخل الشيطان

كل ذى لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات :

إحداهما: التزيد والإسراف ، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة وهى حظ الشيطان ومدخله إلى القلب ، وطريق (الخلاص منه) الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة . فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه .

الثانية: الغفلة ، فإن الذاكر فى حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو فيعسر عليه أو يصعب اخراجه .

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء.

فائـدة

طريق النجاح

طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة بل وإلى كل علم وصناعة ورئاسة بحيث يكون رأساً فى ذلك مقتدى به فيه ، يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً حاكماً على وهمه ، غير مقهور تحت سلطان تخيله ، زاهداً فى كل ما سوى مطلوبه ، عاشقاً لما توجه إليه ، عارفاً بطريق الوصول إليه والطرق القواطع عنه ، مقدام الهمة ثابت الجأش لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم ولا عذل عاذل ، كثير السكون دائم الفكر غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم ، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته لا تستفزه المعارضات ، شعاره الصبر وراحته التعب ، محباً لمكارم الأخلاق ، حافظاً لوقته ، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذى يلتقط الحب بينهم ،

قائماً على نفسه بالرغبة والرهبة، طامعاً فى نتائج الاختصاص على بنى جنسه، غير مرسل شيئاً من حواسه عبثاً ولا مسرحاً خواطره فى مراتب الكون. وملاك ذلك هجر العوائد وقطع العلائق الحائلة بينه وبين المطلوب، وعند العوام أن لزوم الأدب مع الحجاب خير من اطراح الأدب مع الكشف.

فائدة

أفضل الذكر

من الذاكرين من يبتدىء بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر. ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدىء على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع فى الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعاً. فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه. والثانى ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحس بظهور الناطق فيه. فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبى إلى الذكر اللسانى ثم يستغرق فى ذلك حتى يجد كل شىء منه ذاكراً.

وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

فصل

أنفع الناس وأضرهم

أنفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيراً أو تصنع إليه معروفاً، فانه نعم العون لك على منفعتك وكمالك. فانتفاعك به في الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر. وأضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه فانه عون لك على مضرتك ونقصك.

فائـدة

اللـذة المحرمـة

اللـذة المحرمـة ممزوجـة بالقبح حال تناولها مثمرة للألم بعد انقضائها، فإذا اشتدت الداعية منك إليك ففكر في انقطاعها وبقاء قبحها وألمها ثم وازن بين الأمرين وانظر ما بينهما من التفاوت.

والتعب بالطاعة ممزوج بالحسن مثمرة اللذة والراحة، فإذا ثقلت على النفس ففكر في انقطاع تعبها وبقاء حسنها ولذتها وسرورها، ووازن بين الأمـرين وآثر الراجح على المرجوح، فإن تألمت بالسبب فانظر إلى ما في المسبب من الفرحة والسرور واللذة يهن عليك مقاساته، وإن تألمت بترك اللذة المحرمة فانظر إلى الألم الذى يعقبه ووازن بين الألمين.

وخاصية العقل تحصيل أعظم المنفعتين بتفويت ادناهما واحتمال أصغر الألمين لدفع أعلاهما.

وهـذا يحتـاج إلى علـم بـالأسباب ومقتضياتها، وإلى عقل يختار به الأولى والأنفـع له منها، فن وفر قسمه من العقل والعلم اختار الأفضل وآثره، ومن نقص حظه منهما أو من أحدهما اختار خلافه، ومن فكر في الـدنيـا والآخـرة علـم أنه لا ينال واحداً منهما إلا بمشقة فليتحمل المشقة لخيرهما وأبقاهما.

فائـدة

في كل عضو أمر ونهى

لله علـى العبـد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهى، ولـه فيـه نـعـمـة، وله به منفعة ولذة. فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه فقد أدى شكر نعمته عليه فيه وسعى في تكميل انتفاعه

ولذته به، وان عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته.

وله عليه فى كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال فى تقدم أو تأخر ولا وقوف فى الطريق البتة. قال تعالى:

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (١)

فصل

فريقا الجنة والنار

أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهى والعطاء والمنع. فافترقوا فرقتين: فرقة قابلت أمره بالترك ونهيه بالارتكاب وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسخط، وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك. وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك، فان أمرتنا سارعنا إلى الاجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك. فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا، فإذا مزقه عليهم الموت صاروا إلى النعيم المقيم وقرة الأعين. كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار إلا ستر الحياة، فإذا مزقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم.

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة فى قلبك، وأردت أن تعلم من أى الفريقين أنت، فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة. فالفريق الأول استغشوا الهوى فخالفوه واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرغوا قلوبهم للفكر

(١) سورة المدثر: الآية ٣٧.

فيما خلقوا له ، وجوارحهم للعمل بما أمروا به ، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم فى الآخرة، واستظهروا على سرعة الأجل بالمبادرة إلى الأعمال ، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها ، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها ، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه ، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها ، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه وأقبل بقلوبهم إليه وجمعها على محبته وشوقهم إلى لقائه ونعمهم بقربه وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا والهم والحزن على فوتها والغم من خوف ذهابها ، فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، والملأ الأعلى بأرواحهم .

فصل

من صفات التوحيد

التوحيد ألطف (١) شىء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأدنى شىء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جداً أدنى شىء يؤثر فيها . ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية . فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده ، وإلا استحكم وصار طبعاً يتعسر عليه قلعه .

وهذه الآثار والطبوع التى تحصل فيه : منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون سريع الحصول بطىء الزوال ، ومنها ما يكون بطىء الحصول سريع الزوال ، ومنها ما يكون بطىء الحصول بطىء الزوال .

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيراً عظيماً ، ينغمر فيه كثير من تلك الآثار، ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذى يخالطه أدنى

(١) فى الأصل «أصلف»، وأغلب الظن أنه محرف عن ألطف فهو الأصوب.

نجاسة أو وسخ فيغتر به صاحب التوحيد الذى هو دونه ، فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده ، فيظهر من تأثيره فيه ما لم يظهر فى التوحيد الكثير.

وأيضاً فإن المحل الصافى جداً يظهر لصاحبه مما يدنسه ما لا يظهر فى المحل الذى لم يبلغ فى الصفاء مبلغه فيتداركه بالازالة دون هذا فانه لا يشعر به .

وأيضاً فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جداً أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة .

وأيضاً فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليسامح بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات وليست له مثل تلك المحاسن ، كما قيل :

واذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وأيضاً فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه ، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه ، كما يشاهد ذلك فى الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها .

فائدة

لا يجمع الله ذخائره فى قلب فيه سواه

ترك الشهوات لله ، وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته ، فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به ، لا تحصل فى قلب فيه غيره ، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم فإن

الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه وهمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره فى قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقراً دون الله، والعز ذلاً دونه، والذل عزاً معه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه.

وبالجملة، فلا يرى الحياة إلا به ومعه، والموت والألم والهم والغم والحزن، إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنة فى الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة.

فائـدة

الانابة والاعتكـاف

الانابة هى عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن فى المسجد لا يفارقه وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالاجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالاخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه:

﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾[1]،

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل. والتماثيل جمع تمثال، وهى الصور الممثلة. فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التى قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان فى القلب تماثيل قد ملكته

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥٢. وعكف يعكف عكوفاً: أقام.

واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبى صلى الله عليه وسلم عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنكس [1]، فقال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» [2].

الناس فى هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسر بالنزول عليه، وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعن إلى الله فى حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه، فهذه همته فى سفره وفى انقضائه:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [3]

وقالت امرأة فرعون: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [4]

فطلبت كون البيت عنده قبل طلبها أن يكون فى الجنة، فإن الجار قبل الدار.

من كلام الشيخ على [5]:

قيل لى فى نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم: لا تبد فاقة إلى غيرى فأضاعفها عليك مكافأة لخروجك عن حدك فى عبوديتك. ابتليتك بالفقر لتصير ذهباً خالصاً فلا تزيفن بعد السبك. حكمت لك بالفقر ولنفسى

---

(١) التعس: أن يخر لوجهه، والنكس: أن لا يستقل بعد سقطته حتى يسقط ثانية وهى أشد من الأولى.

(٢) رواه البخارى بكتاب الجهاد، وابن ماجة فى الزهد.

(٣) سورة الفجر: الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

(٤) سورة التحريم: الآية ١١.

(٥) ربما قصد الشيخ على بن سهل الأصبهانى، وهو من قدماء مشايخ أصبهان، كان يكاتب الجنيد، وهو من أقرانه.

بالغنى، فإن وصلتها بى وصلتك بالغنى، وأن وصلتها بغيرى حسمت عنك مواد معونتى طرداً لك عن بابى. لا تركن إلى شيء دوننا فإنه وبال عليك وقاتل لك. إن ركنت إلى العمل رددناه عليك، وإن ركنت إلى المعرفة نكرناها عليك، وإن ركنت إلى الوجد استدرجناك فيه، وإن ركنت إلى العلم أوقفناك معه، وإن ركنت إلى المخلوقين وكلناك إليهم، ارضنا لك رباً نرضاك لنا عبداً.

فائدة

الشهقة عند سماع القرآن

الشهقة التى تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب:

أحدها: أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها فتحدث له الشهقة فهذه شهقة شوق.

وثانيها: أن يلوح له ذنب ارتكبه فيشهق خوفاً وحزناً على نفسه، وهذه شهقة خشية.

وثالثها: أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه فيحدث له ذلك حزناً فيشهق شهقة حزن.

ورابعها: أن يلوح له كمال محبوبه ويرى الطريق إليه مسدودة عنه فيحدث ذلك شهقة أسف وحزن.

وخامسها: أن يكون قد توارى عنه محبوبه واشتغل بغيره فذكره السماع محبوبه، فلاح له جماله ورأى الباب مفتوحاً والطريق ظاهرة، فشهق فرحاً. وسروراً بما لاح له.

وبكل حال: فسبب الشهقة قوة الوارد وضعف المحل عن الاحتمال. والقوة أن يعمل ذلك الوارد عمله داخلاً ولا يظهر عليه، وذلك أقوى له

وأدوم، فانه إذا أظهره ضعف أثره وأوشك انقطاعه. هذا حكم الشهقة من الصادق، فإن الشاهق إما صادق وإما سارق وإما منافق.

قاعدة نافعة

أنواع الفكر

أصل الخير والشر من قبل التفكر، فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب فى الزهد والترك والحب والبغض. وأنفع الفكر الفكر فى مصالح المعاد وفى طرق اجتلابها وفى دفع مفاسد المعاد وفى طرق اجتنابها، فهذه أربعة أفكار هى أجل الأفكار. ويليها أربعة: فكر فى مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر فى مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء. ورأس القسم الأول الفكر فى آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه وسنة نبيه وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة. فإذا فكر فى الآخرة وشرفها ودوامها وفى الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا، وكلما فكر فى قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع فى اغتنام الوقت.

وهذه الأفكار تعلى همته وتحييها بعد موتها وسفولها وتجعله فى واد والناس فى واد. وبازاء هذه الأفكار الرديئة التى تجول فى قلوب أكثر هذا الخلق كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه ولا أعطى الاحاطة به من فضول العلم الذى لا ينفع، كالفكر فى كيفية ذات الرب وصفاته، مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه.

ومنها الفكر فى الصناعات الدقيقة التى لا تنفع بل تضر، كالفكر فى الشطرنج والموسيقى وأنواع الأشكال والتصاوير.

ومنها الفكر فى العلوم التى لو كانت صحيحة لم يعط الفكر فيها النفس كمالاً ولا شرفاً، كالفكر فى دقائق المنطق والعلم الرياضى والطبيعى، وأكثر علوم الفلاسفة التى لو بلغ الإنسان غاياتها لم يكمل بذلك ولم يزك نفسه.

ومنها الفكر فى الشهوات واللذات وطرق تحصيلها، وهذا وان كان للنفس فيه لذة لكن لا عاقبة له ومضرته فى عاقبة الدنيا قبل الآخرة أضعاف مسرته.

ومنها الفكر فيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كالفكر فيما إذا صار ملكاً أو وجد كنزاً أو ملك ضيعة ماذا يصنع وكيف يتصرف ويأخذ ويعطى وينتقم ونحو ذلك من أفكار السفل.

ومنها الفكر فى جزئيات أحوال الناس وما جراياتهم ومداخلهم ومخارجهم وتوابع ذلك من فكر النفوس المبطلة الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة.

ومنها الفكر فى دقائق الحيل والمكر التى يتوصل إلى أغراضه وهواه مباحة كانت أو محرمة.

ومنها الفكر فى أنواع الشعر وصروفه وأفانينه فى المدح والهجاء والغزل والمراثى ونحوها، فانه يشغل الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة.

ومنها الفكر فى المقدرات الذهنية التى لا وجود لها فى الخارج ولا بالناس حاجة إليها البتة، وذلك موجود فى كل علم حتى فى علم الفقه والأصول والطب، فكل هذه الأفكار مضرتها أرجح من منفعتها، ويكفى فى مضرتها شغلها عن الفكر فيما هو أولى به وأعود عليه بالنفع عاجلاً وآجلاً.

قاعدة

الطب والصبر

الطب لقاح الإيمان، فإذا اجتمع الإيمان والطب أثمرا العمل الصالح. وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه، فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء. والخشية لقاح المحبة، فإذا اجتمعا أثمرا امتثال الأوامر واجتناب المناهى. والصبر لقاح اليقين، فإذا اجتمعا أورثا الإمامة فى الدين، قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(١).

وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الاخلاص، فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتداد به. والعمل لقاح العلم، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئاً. والحلم لقاح العلم، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة وحصل الانتفاع بعلم العالم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع. والعزيمة لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة وبلغت به همته من العلياء كل مكان.

فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة. وحسن القصد لقاح لصحة الذهن، فإذا فقدا فقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات. وصحة الرأى لقاح الشجاعة، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن فقدا فالخذلان والخيبة، وإن وجد الرأى بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأى بالتهور والعطب. والصبر لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير فى اجتماعهما. قال الحسن:

---

(١) سورة السجدة: الآية ٢٤.

إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت صابراً بصيراً فذاك.

والنصيحة لقاح العقل، فكلما قويت النصيحة قوى العقل واستنار. والتذكر والتفكر كل منهما لقاح الآخر، إذا اجتمعا أنتجا الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة. والتقوى لقاح التوكل، فإذا اجتمعا استقام القلب. ولقاح أخذ أهبة الاستعداد للقاء قصر الأمل، فإذا اجتمعا فالخير كله فى اجتماعهما والشر فى فرقتهما. ولقاح الهمة العالية النية الصحيحة فإذا اجتمعا، بلغ العبد غاية المراد.

قاعـــدة

موقف العبد بين يدى الله

للعبد بين يدى الله موقفان: موقف بين يديه فى الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه. فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف. قال تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾(١).

فائدة

لذة الآخرة أبقى

اللذة من حيث هى مطلوبة للإنسان بل ولكل حى فلا تذم من جهة كونها لذة، وإنما تذم ويكون تركها خيراً من نيلها وأنفع إذا تضمن

(١) سورة الإنسان: الآيات ٢٦ ـــ ٢٧.

فوات لذة أعظم منها وأكمل، أو أعقبت ألماً حصوله أعظم من ألم فواتها. فههنا يظهر الفرق بين العاقل والفطن والأحمق الجاهل. فتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والألمين وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما.

وإذا تقررت هذه القاعدة فلذة الآخرة أعظم وأدوم، ولذة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا، والمعول فى ذلك على الإيمان واليقين، فإذا قوى اليقين وباشر القلب آثر على الأدنى فى جانب اللذة واحتمل الألم الأسهل على الأصعب، والله المستعان.

فائدة

وأيوب إذ نادى ربه

قوله تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (١)

جمع فى هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد واظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم المحبة فى التملق له، والاقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه. وقد جرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره.

فائدة

أنت وليى فى الدنيا والآخرة

قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال:

(١) سورة الأنبياء: الآية ٨٣.

﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١)،

جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه والبراءة من موالاة غيره سبحانه. وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

قاعـــدة

وإن من شيء إلا عندنا خزائنه

قوله الله تعالى:

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ (٢)،

متضمن لكنز من الكنوز وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائه بيديه. وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه. وقوله:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (٣)،

متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد ان لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فانه ليس إليه المنتهى وليس المنتهى إلا إلى الذى انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب. وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل. وكل قلب لا يصل إليه فهو شقى محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله فى قوله: (وإن

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١. (٢) سورة الحجر: الآية ٢١.

(٣) سورة النجم: الآية ٤٢.

من شيء إلا عندنا خزائنه)، واجتمع ما يراد له فى قوله: (وأن إلى ربك المنتهى)، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

من أسرار التوحيد:

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فراد لغيره. وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد[1] إليه المنتهى. ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف فى الظاهر وقل نصيبه من اللطف فى الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذى بين يدى سيده ذليلاً له مستكيناً ناظراً إليه بقلبه ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له وأنه عبد محض يجرى عليه سيده أحكامه رضى أو سخط، فإن رضى نال الرضا وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة يزيد بزيادتها وينقص بنقصانها.

---

(١) هذه لغة تميم، فإنهم يبطلون عمل «ليس» مع «إلا».

فائدة جليلة

محـــبة الله

لا يزال العبد منقطعا عن الله حتى تتصل ارادته ومحبته بوجهه الأعلى. والمراد بهذا الاتصال أن تقضى المحبة إليه وتتعلق به وحده فلا يحجبها شيء دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل، كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك، وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة والتفاته فى حال الذكر إلى غير مذكوره. فحينئذ يتصل الذكر به ويتصل العمل بأوامره ونواهيه فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها، ويترك المناهى لكونه نهى عنها وأبغضها.

فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه، وحقيقته زوال العلل الباعثة على الفعل والترك من الأغراض والحظوظ العاجلة، ويتصل التوكل والحب به بحيث يصير واثقا به سبحانه مطمئنا إليه راضيا بحسن تدبيره له غير متهم له فى حال من الأحوال، ويتصل فقره وفاقته به سبحانه دون من سواه، ويتصل خوفه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده، فلا يخاف غيره ولا يرجوه ولا يفرح به كل الفرح ولا يسر به غاية السرور.

وإن ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل والابتهاج والنعيم وقرة العين وسكون القلب إلا به سبحانه، وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به، وان حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به، فلا فرحة ولا سرور إلا به أو بما أوصل إليه وأعان على مرضاته. وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها، وأمر بالفرح بفضله ورحمته وهو الاسلام والايمان والقرآن، كما فسره الصحابة والتابعون.

والمقصود أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل، والا فهو مقطوع عن ربه متصل بحظه ونفسه ملبس عليه في معرفته وارادته وسلوكه.

قاعدة جليلة

النعم كلها من الله

قد فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها، قال تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ (١)

وقال: ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

وقال: ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣)

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه.

والذنوب من خذلانه وتخليه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٣.   (٢) سورة الأعراف: الآية ٦٩.

(٣) سورة النحل: الآية ١١٤.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد بل بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء، فإن وفق عبده أقبل بقلبه إليه وملأه رغبة ورهبة، وإن خذله تركه ونفسه ولم يأخذ بقلبه إليه ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

التوفيق والخذلان:

ثم فكرت هل للتوفيق والخذلان سبب أوهما بمجرد المشيئة لا سبب لهما؟ فإذا سببها أهلية المحل وعدمها، فهو سبحانه خالق المحال متفاوتة في الاستعداد والقبول أعظم تفاوت، فالجمادات لا تقبل ما يقبله الحيوان، وكذلك النوعان كل منهما متفاوت في القبول. فالحيوان الناطق يقبل ما لا يقبله البهيم، وهو متفاوت في القبول أعظم تفاوت. وكذلك الحيوان البهيم متفاوت في القبول، لكن ليس بين النوع الواحد من التفاوت كما بين النوع الإنساني.

فإذا كان المحل قابلا للنعمة بحيث يعرفها ويعرف قدرها وخطرها ويشكر المنعم بها ويثني عليه بها ويعظمه عليها، ويعلم أنها من محض الجود وعين المنة، من غير أن يكون هو مستحقا لها ولا هي له ولا به، وإنما هي لله وحده وبه وحده. فوحده بنعمته اخلاصا وصرفها في محبته شكرا، وشهدها من محض جوده منة، وعرف قصوره وتقصيره في شكرها عجزا وضعفا وتفريطا، وعلم أنه إن أدامها عليه فذلك محض صدقته وفضله واحسانه، وإن سلبه اياها فهو أهل لذلك مستحق له.

وكلما زاده من نعمة ازداد ذلا له وانكسارا وخضوعا بين يديه وقياما بشكره وخشيته له سبحانه أن يسلبه اياها لعدم توفيته شكرها كما سلب نعمته عمن لم يعرفها ولم يرعها حق رعايتها، فإن لم يشكر نعمته وقابلها بضد ما يليق أن يقابل به سلبه اياها ولا بد، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (١)

وهم الذين عرفوا قدر النعمة وقبلوها وأحبوها وأثنوا على المنعم بها وأحبوه وقاموا بشكره، وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (٢)

فصل

أسباب الخذلان

وسبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة بحيث لو وافته النعم لقال هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه كما قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (٣)

أي على علم علمه الله عندي استحق به ذلك واستوجبه واستأهله. قال الفراء: أي على فضل عندي أني كنت أهله ومستحقا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندي.

وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل (٤) سليمان بن داود (النبي) فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٣. (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

(٣) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٤) كان من أشراف قريش، وأمه هند أخت معاوية بن أبي سفيان. عرف بالورع والصلاح. ولاه ابن الزبير البصرة، ولما قامت فتنة ابن الأشعث هرب إلى عمان، وتوفي فيها سنة (٨٤ هـ = ٧٠٣م).

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (١)

ولم يقل هذا من كرامتى، ثم ذكر قارون وقوله:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ (٢)

يعنى أن سليمان رأى ما أوتيه من فضل الله عليه ومنته وأنه ابتلى به (ف) شكره، وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاق. وكذلك قوله سبحانه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ (٣)

أى أنا أهله وحقيق به فاختصاصى به كاختصاص المالك بملكه.

والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه وفضلا منه من به على عبده من غير استحقاق منه بل صدقة تصدق بها على عبده، وله إلا يتصدق بها. فلو منعه اياها لم يكن قد منعه شيئا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأى فيه أهلا ومستحقا فأعجبته نفسه وطغت بالنعمة وعلت بها واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۞ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ (٤)

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء وبالفرح والفخر عند الابتلاء بالنعماء. واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذ كشف عنه البلاء

---

(١) سورة النمل: الآية ٤٠.

(٢) سورة القصص: الآية ٧٨.

(٣) سورة فصلت: الآية ٥٠

(٤) سورة هود: الآية ٩ ــ ١٠

قوله: ذهب السيئات عنى، ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عنى برحمته ومنه لما ذم على ذلك، بل كان محمودا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر.

فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فان محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١)

فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغى أن يعلم أن أسباب الخذلان مع بقاء النفس على ما خلقت عليه فى الأصل واهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة. فأسباب التوفيق منه ومن فضله وهو الخالق لهذه وهذه كما خلق أجزاء الأرض، هذه قابلة للنبات وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر، هذه تقبل الثمرة وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه، والزنبور غير قابل لذلك. وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحبته واجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة لذلك بل لضده، وهو الحكيم العليم.

* * *

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٢ ـ ٢٣

قال شيخ الإسلام بحر العلوم مفتى الفرق أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله(١) :

فصل

تفسير أول سورة العنكبوت

قال تعالى :

﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ

---

(١) هو شيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميرى الحرانى الدمشقى الحنبلى. أبو العباس، تقى الدين ابن تيمية. ولد فى حران سنة (٦٦١هـ= ١٢٦٣) ودرس فى دمشق ونبغ فى مختلف العلوم الشرعية. ناظر العلماء.فكانت آراؤه الإصلاحية سبباً فى إعتقاله عدة مرات فى مصر ودمشق. ومات معتقلا فى دمشق سنة (٢٧٨هـ= ١٣٢٨م).. وقد ترك مؤلفات كثيرة ذكر فى «فرات الوفيات» أنها تبلغ ثلاثمائة مجلد

فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢)

وقال الله تعالى لما ذكر المرتد والمكره بقوله:

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ﴾ (٣)

قال بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤)

فالناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنا واما الا يقول آمنا، بل يستمر على عمل السيئات. فمن قال آمنا امتحنه الرب عز وجل وابتلاه وألبسه الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنا فلا يحسب أنه يسبق الرب لتجربته، فإن أحدا لن يعجز الله تعالى هذه سنته تعالى يرسل الرسل إلى الخلق فيكذبهم الناس ويؤذونهم، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ (٥)

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ١ ـ ١١
(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٤
(٣) سورة النحل: الآية ١٠٦
(٤) سورة النحل: الآية ١١٠
(٥) سورة الأنعام: الآية ١١٢

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ (٢)

ومن آمن بالرسل وأطاعهم عادوه وآذوه فابتلى بما يؤلمه ، وإن لم يؤمن بهم عوقب فحصل (له) مايؤلمه أعظم وأدوم ، فلابد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت ، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة فى الدنيا والآخرة ، والكافر تحصل له النعمة ابتداء ثم يصير فى الألم .

رأى الشافعى فى الابتلاء والتمكن

سأل رجل الشافعى فقال : ياأبا عبد الله ، أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى ؟ فقال الشافعى : لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحا وابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فلما صبروا مكنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة .

من أرضى الله وأسخط الناس

وهذا أصل عظيم فينبغى للعاقل أن يعرفه ، وهذا يحصل لكل أحد فإن الإنسان مدنى بالطبع لابد له من أن يعيش مع الناس والناس لهم ارادات وتصورات يطلبون منه أن يوافقهم عليها وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه ، وإن وافقهم حصل له الأذى والعذاب تارة من غيرهم .

ومن اختبر أحواله وأحوال الناس وجد من هذا شيئا كثيرا كقوم يريدون الفواحش والظلم ولهم أقوال باطلة فى الدين أوشرك ، فهم مرتكبون بعض ما ذكره الله من المحرمات فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٢ (٢) سورة فصلت: الآية ٤٣

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وهم في مكان مشترك كدار جامعة أو خان أو قيسيرية أو مدرسة أو رباط أو قرية أو درب أو مدينة فيها غيرهم، وهم لا يتمكنون مما يريدون إلا بموافقة أولئك، أو بسكوتهم عن الانكار عليهم، فيطلبون من أولئك الموافقة أو السكوت، فان وافقوهم أو سكتوا سلموا من شرهم في الابتلاء، ثم قد يتسلطون هم أنفسهم على أولئك يهينونهم ويعاقبونهم أضعاف ما كان أولئك يخافونه ابتداء كمن يطلب منه شهادة الزور أو الكلام في الدين بالباطل، إما في الخبر وإما في الأمر أو المعاونة على الفاحشة والظلم، فإن لم يجبهم آذوه وعادوه، وإن أجابهم فهم أنفسهم يتسلطون عليه فيهينونه ويؤذونه أضعاف ما كان يخافه وألا عذب بغيرهم.

فالواجب ما في حديث عائشة الذي بعثت به إلى معاوية، ويروى موقوفا ومرفوعا: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس» (٢)، وفي لفظ «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا»، وفي لفظ «عاد حامده من الناس ذاما».

وهذا يجري فيمن يعين الملوك والرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع المنتسبين إلى العلم والدين على بدعهم. فمن هداه الله وأرشده امتنع من فعل المحرم وصبر على أذاهم وعداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما جرى للرسل وأتباعهم مع من

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣٣ (٢) راجع الترمذي باب (الزهد)

آذاهم وعاداهم، مثل المهاجرين فى هذه الأمة ومن ابتلى من علمائها وعبادها وتجارها وولاتها.

لابد من الابتلاء

وقد يجوز فى بعض الأمور اظهار الموافقة وابطان المخالفة كالمكره على الكفر، كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع، إذ المقصود هنا: أنه لا بد من الابتلاء بما يؤذى الناس، فلا خلاص لأحد مما يؤذيه البتة، ولهذا ذكر الله تعالى فى غير موضع أنه لا بد أن يبتلى الناس، والابتلاء يكون بالسراء والضراء، ولا بد أن يبتلى الانسان بما يسره وما يسوؤه، فهو محتاج إلى أن يكون صابرا شكورا، قال تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (1)

وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (2)

وقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (3)

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (4)

هذا فى آل عمران. وقد قال قبل ذلك فى البقرة، فإن البقرة نزل أكثرها قبل آل عمران:

---

(1) سورة الكهف: الآية ٧

(2) سورة الأعراف: الآية ١٦٨

(3) سورة طه: الآية ١٢٣ ـ ١٢٤

(4) سورة آل عمران: الآية ١٤٣

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١)

وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء، كالذهب الذى لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن فى كير الامتحان إذ كانت النفس جاهلة ظالمة وهى منشأ كل شر يحصل للعبد، فلا يحصل له شر إلا منها، قال تعالى:

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٣)

وقال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٥) ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (٦)

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٤

(٢) سورة النساء: الآية ٧٩

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٥

(٤) سورة الشورى: الآية ٣٠.

(٥) سورة الأنفال: الآية ٥٣.

(٦) سورة الرعد: الآية ١١.

وقد ذكر عقوبات الأمم من آدم إلى آخر وقت، وفى كل ذلك يقول إنهم ظلموا أنفسهم فهم الظالمون لا المظلومون، وأول من اعترف بذلك أبوهم، قالا:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (١)

وقال لإبليس: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢)

وإبليس إنما اتبعه الغواة منهم كما قال:

﴿ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (٤)

والغى اتباع هوى النفس، وما زال السلف معترفين بذلك كقول أبى بكر وعمر وابن مسعود: أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله، وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

وفى الحديث الألهى حديث أبى ذر الذى يرويه الرسول عن ربه عز وجل: «يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٣. (٢) سورة ص: الآية ٨٥.

(٣) سوره الحجر: الآيات ٣٩ ـ ٤٠. (٤) سورة الحجر: الآية ٤٢.

(٥) رواه مسلم فى صحيحه، باللفظ التالى: عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بنكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم. يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاسطعمونى أطعمكم. يا عبادى كلكم عار إلا من كسونه فاستكسونى =

سيد الاستغفار:

وفي الحديث الصحيح، حديث «سيد الاستغفار، أن يقول العبد: اللهم انك ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى، فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة» (١).

وفي حديث أبى بكر الصديق من طريق أبى هريرة وعبد الله بن عمرو: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمه ما يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم، قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك».

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى خطبته: «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا». وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إنى آخذ بحجزكم عن النار

أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

(١) رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن حنبل بألفاظ مختلفة.

وأنتم تتهافتون تهافت الفراش» (١)، شبههم بالفراش لجهله وخفة حركته، وهي صغيرة النفس، فإنها جاهلة سريعة الحركة.

وفي الحديث: «مثل القلب مثل ريشة ملقاة بأرض فلاة». وفي حديث آخر: «للقلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً». ومعلوم سرعة حركة الريشة والقدر مع الجهل، ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه: إنه استخفه. قال عن فرعون: «انه استخف قومه فأطاعوه». وقال تعالى:

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢).

فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت، يقال: أيقن إذا كان مستقراً، واليقين: استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً، فقد يكون علم العبد جيداً لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش.

أصل الغضب:

قال الحسن البصري (٣): إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك. قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٤)

---

(١) رواه أحمد بلفظ مختلف ٦/٤٥٤. (٢) سورة الروم: الآية ٦٠.

(٣) هو الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، من التابعين، ولد سنة (٢١ هـ=٦٤٢م) في المدينة المنورة، ثم سكن البصرة فكان إمامها، وهو من العلماء الفقهاء الفصحاء. كان يأمر الولاة وينهاهم، ولا يخاف في الحق لومة لائم. قال فيه الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء وأقربهم هدياً من الصحابة، وكان غاية في الفصاحة تتصبب الحكمة من فيه. توفي بالبصرة سنة (١١٠ هـ=٧٢٨م).

(٤) سورة السجدة: الآية ٢٤.

ولهذا تشبه النفس بالنار في سرعة حركتها وإفسادها وغضبها، وشهوتها من النار والشيطان من النار.

وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الغضب من الشيطان والشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ» (١). وفي الحديث الآخر: «الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم»، ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، وهو غليان دم القلب لطلب الانتقام. وفي الحديث المتفق على صحته: «الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» (٢).

وفي الصحيحين: «أن رجلين استبا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد اشتد غضب أحدهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» (٣)، وقد قال تعالى:

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥)،

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ٤/٢٢٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام/ ٢١ وبدء الخلق/ ١١، واعتكاف/ ١١،١٢، ورواه أبوداود في كتاب الصوم/ ٧٨، أدب/٨١، ورواه ابن ماجة في كتاب الصيام/ ٦٥، والدارمي في رقاق/٦٦، وأحمد في الباب/٣ الحديث١٥٦/ ٢٨٥/ ٣٠٩.

(٣) رواه أحمد ٥/٢٤٠.

(٤) سورة فصلت: الآيات ٣٤ــ٣٦.

(٦) سورة الأعراف: الآيات ١٩٩ ــ ٢٠٠.

وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (١)

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٩٦ ـ ٩٨.

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
٨٧ / ٥٨٦٨

مطابع مؤسسة أخبار اليوم
القاهرة

مطابع مؤسسة أخبار اليوم
القاهرة